الفصل الأول

ثورة فاشلة

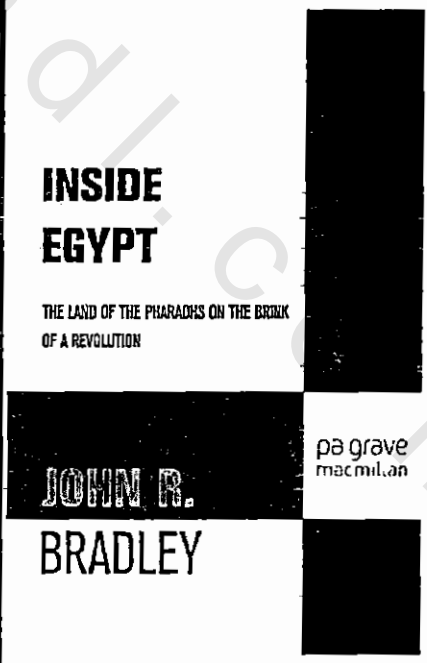

يقع على مسافة سير قصيرة من الجامعة الأمريكية في القاهرة، وعبر الشوارع الصاخبة في قلب أكبر عاصمة في أفريقيا – والأكثر سكاناً في العالم العربي – مقهىً صغير رث يُسمى الندوة الثقافية. إنه مُستراح لمجتمع مثقفي القاهرة الليبراليين المحاصرين، وتفيض كراسيه وطاولاته الخشبية على الشارع خارجه. إن أصوات الزبائن المفعمة بالحيوية تتنافس مع أبواق السيارات دائمة الصفير؛ والأصوات الأُوبرالية للندلاء ذوي السترات البيضاء لتقديم الطلبات تقابلها جوقة من نداءات الباعة المتكررة من الشارع القريب. ويختلط دخان الأراجيل مع أدخنة عوادم السيارات الصادرة من المرور المكتظ. إن المقهى صورة مصغرة للقاهرة المعاصرة: ازدحام مروري وتلوث ضوضائي وحيوية اجتماعية نشأت من قبل أناس، بالرغم من الفوضي التي تعمهم (أو ربما بسببها)، لا يحبون شيئاً أكثر من الانخراط في جدل نشط في الأماكن

العامة حول التافه والجاد. وفي شتاء ٢٠٠٦ م ، كان يكتسح مصر فيلم يُدعى. عمارة يعقوبيان أثناء ما كنت في طريقي إلى الندوة الثقافية لأقابل بدون موعد مسبق علاء الأسواني مؤلف الرواية ذات نفس الاسم والتي اعتمد الفيلم عليها. إنه الفيلم الأغلى الذي تم إنتاجه على الإطلاق، وهو يصور كثيرًا من نجوم البلاد المشهورة، وفي أسابيعه الافتتاحية حطم جميع الأرقام القياسية لشباك التذاكر المصري. وتمثل باقة الشخصيات، الموضوعة في بناية شققية كانت فخمةً ذات مرة في حي وسط القاهرة التاريخي القريب من الندوة الثقافية، الطبقات المختلفة لمجتمع مصر المعقد. لقد كان المبنى نفسه شخصية محورية. إنه ظلٌ بائس لأبهته في ذروة ثلاثينياته وأربعينياته من القرن الماضي، خلال ما يُعرف بالحقبة الجميلة. ويشير تدهور المبنى إلى حزن مصر الخاص، دائم السقوط من السمو خلال مدة أكثر من خمسة عقود من الحكم العسكري منذ انقلاب يوليو ١٩٥٢ م الذي أطاح بالملكية المدعومة بريطانياً وأتى بجمال عبد الناصر والضباط الأحرار إلى السلطة. ومع مشهد السينما الثقافي الضحل تقريباً، التي كانت عظيمة ذات مرة والآن مراقبة بشدة، تموج مسرحيات كوميدية تهريجية لا نهاية لها، يكشف الفيلم ببلاغة غير عادية الواقع القاتم الذي يواجه المصريين يومياً. فالانحلال الجنسي والفساد السياسي يعمان العالم الذي تتحرك الشخصيات فيه. ويتنافس القوادون والمومسات والمخادعون الصغار ورجال متسلقون محترفون ذوو واسطات عليا من أجل نصيب من غنائم أمة منهارة تعاني الآن من كابوس ثنائي اللغة: هبوط الخصخصة الحرة عليها من أعلى وانتشار الأسلمة من أسفل. فالأغنياء في هذا التصوير لمصر يصبحون أكثر غنىً دائماً والفقراء أكثر فقراً أبداً. وفي هذه الأثناء، اختفت الطبقة الوسطى كلها ومعها أي أمل في تقدم اجتماعي قائم على تعليم جيد ورغبة في العمل الجاد. إن الإسلاميين المتطرفين يفترسون الضعفاء والمحرومين المهملين من جانب النظام. والمهذبون والمتعلمون مسحوقون تحت أقدام البلطجية شبيهي المافيا المعروفين بالعربية بـ «أغنياء الحرب» — والمترجمة إلى الإنجليزية بشكل أفضل بـ «القطط السمان». إنها بلاد يتوق جميع الشباب تقريباً للهرب منها وآخر آمالهم من أجل مستقبل أفضل ترك أحبتهم والسفر بحثاً عن العمل والكرامة.

يجتمع الأسواني بدون موعد مسبق كل خميس مع صدقاء ومثقفين زملاء ومعجبين

بروايته لمناقشة التطورات السياسة والثقافية الأخيرة في مصر؛ إنه معجبين كثر. وحتى قبلما يضع النجاح الدرامي للفيلم اسمه كمؤلف في المستوى الدولي، كانت رواية عمارة يعقوبيان قد حققت أفضل المبيعات في مصر والعالم العربي الأوسع منذ نشرها عام ٢٠٠٢. لقد ذهب الكثيرون إلى مدىً بعيد، بقلة نضج نوعاً ما، في تتويج الأسواني كخليفة لنجيب محفوظ المؤلف المصري الكبير الحائز على جائزة نوبل. تُوفي محفوظ، الذي حُولت رواياته أيضاً إلى أفلام شعبية، في مستشفى بالقاهرة عام ٢٠٠٦ إثر محاولة اغتيال في أوائل تسعينيات القرن الماضي على يد متطرف إسلامي، المحاولة التي جعلته غير قادر على الكتابة. واسم الأسواني، الذي هو في أربعينيات عمره وبرقبة وساعدي ملاكم، يبين أن عائلته جاءت من مدينة جنوب مصر الرائع أسوان، قلب النوبة. ويوحي عدم تظاهره وأخلاقه الودودة (مثل محفوظ) بكبحه لشهرته الحديثة أن تقوده إلى الغرور. لقد عاش في أمريكا وفرنسا وهو طليق في الإنجليزية والإسبانية والفرنسية إضافة إلى لغته العربية الأم. لقد مارس مهنته كطبيب أسنان في المبنى المذكور وسط القاهرة والذي تم تخيله في الرواية. وكونه طبيب أسنان فمن الغريب أنه مدخن شره، لكنه مثل معظم المصريين الذين قابلتهم. وأثناء تعريفي بنفسي أطلق نكتة لكسر الجليد حول التكامل بين الثقافات – موضوع روايته الأخيرة، شيكاغو – بعدما لاحظ أنني أدخن كليوبترا السيجارة المصرية المحلية بينما هو يمسك بعلبتين من سجائره الأمريكية المفضلة.

لقد تجمع نحو خمسين شخصاً في المقهى تلك الليلة قارسة البرد من شتاء ٢٠٠٦. وجلست في الصف الأخير ملاحظاً أكثر مني مشاركاً. لقد راحوا يمرون عن ميكرفون معلق بمكبر صوت يسمح بسماع كل شخص برغم جلبة المرور في الخارج. وسيطرت على المناقشة التي افتتحها الأسواني بحديث قصير تداعيات تعليق حديث قاله وزير الثقافة فاروق حسني، فكان قد قال بأن ارتداء الخمار المنتشر في مصر الآن منذ تسعينيات القرن الماضي تقريباً وتقاومه أقلية البلاد المسيحية القبطية الآن إن هو إلا علامة على «التخلف». لقد كان رد الفعل العنيف على حسني مملاً بقدر ما هو قاسٍ، لا يثبت أكثر، وهذا ما صدمني، من صدق عبارته. لقد التحق نواب الإخوان المسلمين في البرلمان بأولئك النواب من حزب الرئيس حسني مبارك الحاكم الحزب الديمقراطي الوطني (العلماني ظاهرياً) الذي يهيمن على المجالس التشريعية المشكلة عبر ما يدعي كثيرون،

بضمنهم المعارضة، بأنها انتخابات مزورة، باستقالة فاروق حسني. وشن كتّاب أعمدة الجرائد الموالية للحكومة والمعارضة على قدم وساق هجمات شخصية ضارية على وزير الثقافة. فاقترح البعض بمكر (وبدون أي سبب ظاهر) أن رجلاً لديه القليل من الاهتمام بالمرأة عليه أن يكون آخر من يُعبر عن آراء قوية حول ما يرتدين. قد يبدو هذا، على السطح، أنه من غير المرجح أن يكون حلفاً بين القوى الإسلامية والعلمانية، ليس على الأقل مذ أن النظام متهم بشكل روتيني بسجن وتعذيب نشطاء المعارضة ويضطهد بلا رحمة الإخوان المسلمين الأصوليين بصفة خاصة. ومع ذلك، حين النظر عن كثب أكثر، يبين رد الفعل على تعليقات حسني بشكل جيد كيف أن النظام يخطف ملابس الإسلاميين ليدعم مؤازته المتهاوية أبداً بين الجماهير، هذه الممارسة التي ليس صدفة لها فائدة دفع الأصوات التقدمية بعيداً إلى الهامش بينما هي تُعزز «تهديد إسلامي» يعلنه النظام ليبقي ضغط ونقد دافعي رواتبه في واشنطن له في أدنى مستوياتهما.

إن التعليقات التي أدلى بها من جاء للحديث في صالون الأسواني غير الرسمي كانت كلها تقريباً داعمة لوزير الثقافة، ليس بالضرورة بشأن وجهات نظره حول النقاب، بل بالتأكيد بأنه لا يستحق أن يُهاجم، وهذا يكشف كلاً من ميولهم الليبرالية وكم كانوا منعزلين أيضاً عن تيار الرأي العام. وإن رأت كلٌ من المعارضة والحزب الحاكم بعد ذلك فوائد في كسب مكافأة سياسية من تعليقات حسني، فقد اعتقد كلاهما أن الموضوع تردد صداه بين الشعب وهكذا يمكن استغلاله لمكاسب سياسية. لقد كان ما لم يستطع المشاركون في المقهى فهمه بصفة خاصة كيف لتعبير فرد عن رأي بشكل ارتجالي تقريباً، مهما كان موقعه بارزاً في الحكومة، التسبب في مثل هذه الضجة بينما أخفقت قصص الفقر المنتشر والبطالة الضخمة والفساد المزمن والثقافة العامة لمحاباة الأقارب – مواضيع رواية الأسواني – في تحريك الجماهير بشيء يقارب نفس ذاك القدر من الضجة. لقد أثبت رد الفعل لهم إفلاس الخطاب الثقافي المحلي وقبضة الإسلاميين على العقل المصري الجماعي، لكنه بين أيضاً الإحساس الساذج تقريباً بالعدالة من طرف أولئك حاضري الصالون، إذ حولت الضجة بشأن النقاب الانتباه عن الواقع القاتم الذي يواجهه الناس ولكن يستطيعون عمل القليل بشأنه. فليس صدفة أن يكون للمسرحيات الفكاهية التهريجية والاستياء المفبرك انتشار عظيم عندما تكون المواضيع الملحة غير محلولة بشكل محزن.

بعد تفرق الجمهور وجلسنا على طاولة في الخارج، أخبرني الأسواني قائلاً، «نشأت هنا في وسط القاهرة ولا أعتقد كثيراً بأنه جزء من مدينة العصر الذي كان موجوداً لأكثر من مائة وخمسين سنة قبل الثورة، عندما كانت مصر متسامحة جداً».

إن اختلافات الأساليب المعمارية التي ميزت مشهد قاهرة ما قبل الثورة، بالنسبة للنخبة المصرية الليبرالية التي برز منها الأسواني كشخصية هامة، عنت أكثر من الأزمان والأذواق المتغيرة فقط. إنها تمثل فترة تعوّد إلى بداية القرن التاسع عشر عندما عاش وعمل المسلمون المسيحيون واليهود والمصريون والعثمانيون والأرمن والإيطاليون والفرنسيون سوية في مصر. لقد أصبح مشهد المدينة نموذجاً للتنوعية العرقية. وهذا الماضي الكوزموبولوتاني تم إبرازه في عمارة يعقوبيان، حيث المبنى المسمى، يقف كمبنى فنٍ ديكوي متلاشٍ في حياة القاهرة الحقيقية متحولاً إلى بقايا من «النمط الأوروبي الكلاسيكي الراقي» المكتمل بالأعمدة والمظاهر اليونانية الحجرية.

كان الأسواني ذاته قد انفتح على الغرب في عمر مبكر. فقد قال إن جزءاً منه «ليبرالي أساساً». ووالده كان كاتباً وفناناً، وتمتع الأسواني بنشأة ذات اهتمام بالكتب وحرة التفكير. فقد أخبر مجلة مصر اليوم المحلية خلال الدعاية الكاسحة المحيطة بتدشين عمارة يعقوبيان، «من أراد أن يُصلي فليصلِّ؛ ومن أراد أن يشرب، فليشرب؛ ومن أراد أن يصوم، فليصم.» وكان شغوفاً بالإيضاح لي أنه يجب أن لا يُماهى مع أي شخصية معينة في الرواية. حقاً، إن قوته الرئيسة ككاتب تقع في قدرته البروستية لإظهار تعاطفه مع وجهات النظر المتعارضة لشخصياته التي لا تعد ولا تحصى. وفي نفس الوقت، أصبح واضحاً أثناء استمرار محادثتنا بأنه شارك بطل روايته الأرستقراطي العجوز، زكي باشا، ازدراءً لواقع حياة القاهرة الحالي الرتيب، وحنين معين لفترة ما قبل الثورة – حنين قيدته بشدة تحفظاته حول الاستعمار البريطاني الذي عرَّف تلك الفترة.

قال متفكراً قبل أن يقاطعه بأدب مجموعة من المعجبين طالبين اليه أن يوقع لهم نسخًا من كتابه بالإنجليزية والعربية، «الاستعمار سيئ دائماً، فمهما امتلك من نتائج إيجابية لم يتم إنشاؤها من أجل منفعة الشعوب الأصلية. لكنها حقيقة أنه قبل الثورة كان لنا تفسيرنا المتسامح للدين في مصر، وذلك هو السبب لماذا كنا كزموبولوتانيين – كان لدينا أناس من

كل أصقاع الأرض يعيشون هنا».

اشتغل الإسواني سابقاً في جريدة تدعى الشعب، حيث كان مسئولاً عن الصفحة الأدبية فيها. وللجريدة نفسها تاريخ ممتع؛ فالتي كانت ذات مرة يسارية انتقلت إلى شخصية إسلامية بشكل مضطرد الأمر الذي ربما يفسر لماذا لم يعد الأسواني يعمل هناك. والتفسير الفضفاض الذي حاولت الشعب تقديمه لتحولها أنها أرادت أن تعكس بدقة عواطف الناس الذي يدعي اسمها تمثيلها؛ أما البديل الذرائعي قد يوحي أن المبيعات ربما تكون أفضل فور نبذ وجهة النظر اليسارية. وفي الحقيقة كان يعود تحول الجريدة إلى فقدان الإيمان، لنقل ذلك صراحة، بالإجابات اليسارية لدى مبادئها الهادية. فهي قادت حملة تاريخية مبكرة ضد وزارة التربية لأنها طبعت رواية وليمة لأعشاب البحر المعتبرة أيضاً غير إسلامية من قبل بوليس الفكر المحلي.

ربما شعر الأسواني ببعض التعاطف الشخصي بالنسبة لصدام وزير الثقافة فاروق حسني الأحدث مع المتطرفين بشأن موضوع النقاب (الذي نجا منه الوزير بسبب وده مع سوزان زوجة الرئيس التي رفضت ارتداءه)، ولأنه كان قد تلقى أيضاً حملة مشوهة غاضبة مماثلة في الصحف الموالية للحكومة. فكتَّاب الأعمدة اتهموه بـ «تشويه صورة مصر في الخارج» (التي هي رسمياً جريمة) – ليس فقط لأن إحدى شخصياته لوطي صراحة بوضوح (إن المثلية الجنسية منتشرة في مصر جداً بين الشباب المصري، لكن الموضوع عادة لا يُناقش علناً)؛ وأحد مشاهد الرواية يصف الاغتصاب الوحشي لأحد المتهمين الإسلاميين من قبل أحد بلطجية موظفي الحكومة في أحد مراكز بوليس البلاد، حيث يُدَّعى اغتصاب الرجال والنساء كعقاب إذلالي ووسيلة لانتزاع الاعترافات بشكل روتيني.

إن المصريين هم الشعب الأكثر وطنية في العالم العربي. وقد يبدو هذا غير منسجم آخذين في الاعتبار أنني لم أقابل مطلقاً شخصًا محليًا لا يزدري رئيسه بدرجة أو أخرى وأن استطلاع دولي لمؤسسة بيو في يوليو ٢٠٠٧ وجد نسبة مذهلة من المصريين تساوي ٨٧٪ (الأغلبية الأكثر في كل السبع والثلاثين بلداً المستطلعة) كانت غير راضية عن أداء حكومتهم. وفي نفس الوقت، من الصعب إيجاد أي شخص لا يحب بلده، ولديه افتخار

عظيم بماضيها ولديه إيمان عظيم في قدرات شعبها لو أُعطوا نصف أمل في مستقبلهم. إن مفتاح فهم هذا التناقض الظاهر يكمن في الاعتراف بأنه أثناء وعي المصريين بعيوب بلدهم، فهم مع ذلك يمتعضون عندما يوجه الشخص الأجنبي الانتباه لها، وحتى أكثر من ذلك عندما ينشر مواطن مصري غسيلهم المتسخ علانية لصالح جمهور غربي مُتخيل من السابق على أنه مشحون بالصور السلبية للعالم العربي.

ذكَّرت الأسواني بهذا قبل إعادتي عليه قراءة ما كان قد قاله عن مصر في نفس المقابلة مع مصر اليوم رداً على مسح مدمر للبلاد بواسطة مونديال البريطانية الرائدة التي تقدم النصائح للشركات الأجنبية المستثمرة في مصر ولأولئك الساعين للحصول على تأمين على السفر. لقد ولَّد المسح موجة من بحث-الذات في وسائل الإعلام المصرية وليس القليل من ردود الفعل الطائشة، بعدما صنفت مونديال خدمة البلاد وقطاعات السياحة بصفر صريح، وأخبر الأسواني مصر اليوم قائلاً، «لقد وصل أمرنا إلى الحصول على صفر. إن هذا الصفر الذي تلقيناه من المونديال نتيجة عادلة، ليس فقط في المونديال بل في كل شيء. إن ذاك الصفر لا يجب إعطاؤه للمصريين حقاً؛ يجب إعطاؤه للحكومة المصرية. فالحكومة المصرية يجب أن تحصل على صفر في كل المجالات، ليس فقط في كرة القدم، لكن في الصحة والتعليم وفي الديمقراطية وفي كل شيء.» وعندما سألته عن مسؤوليته كمصري نحو رؤية الأجانب للبلاد وهم القراء الرئيسيون للمصري اليوم، هز كتفيه فقط وقال: «ليس من شغلي كروائي ضمان زيارة ملايين السواح مصر كل عام.» على أية حال، أضاف بأنه متأكد أن الأذناب كتبة الأعمدة ضده في وسائل إعلام الدولة كافأتهم الدولة بسخاء لنشر «آرائهم.» وقال بأن هذا الواقع هو ما يجب أن يكون سبب العار الوطني. لقد أثبت له الاستقبال الذي يُقابل به من المصريين العاديين أثناء سيره في شوارع القاهرة بأن الكثير على المستوى الشعبي يقدرون جهوده. وعاد أخيراً متنهداً لموضوعه المحوري: «كانت مشكلة حكم عبد الناصر أنها أنشأت نظاماً غير ديمقراطي من حيث الجوهر والذي لا زال لدينا حتى اليوم».

وصل البوليس السري، كما لو ليثبت وجهة نظر الأسواني، يوم الخميس من الأسبوع الذي قابلته فيه، إلى الندوة الثقافية قبل فترة قصيرة من إجراء الصالون. فأبلغوا المالك أن

التجمع غير قانوني وضربوا الندلاء وأمروهم ألا يقدموا المشاريب للضيوف، وقطع المالك الخائف الكهرباء فعلاً (المالك صديق للأسواني لمدة أكثر من عقد). من ذلك اليوم فصاعداً كان على هذه المجموعة المعارضة الصغيرة من المفكرين الأحرار إيجاد مكان آخر للتعبير عن آرائهم الشخصية. ويبدو أن الأسواني نجا من الاعتقال (مصير كثير من المثقفين الليراليين المعروفين أقل والمدونيين والنشطاء السياسيين المعارضين) فقط بسبب نمو شهرته الدولية إلى المدى أن النظام تحت الضغط المحدود من واشنطن والمراقبين الدوليين حول سجله المرعب في حقوق الإنسان والديمقراطية، كان قد قرر أن الاحتجاج المحتوم في وسائل الإعلام العالمية حول مثل عمل الإسكات القبيح هذا سيجلب متاعب أكثر مما يستأهل. على أية حال، لكن تقريباً جميع الديكتاتوريات الشرسة تعرف أن هناك بعض المنفعة يمكن اكتسابها من ترك القليل من الليبراليين البارزين لرغباتهم الخاصة، إذ خلقوا للعالم الخارجي انطباعاً زائفاً من الحرية والتعددية.

«كان ناصر أسوأ حاكم في تاريخ مصر كله،» هكذا يقدم ملاحظةً، في جزء لا يُنسى من الرواية، زكي باشا بطل عمارة يعقوبيان الذي كان والده عضواً في الأرستقراطية التي أُزيلت من السلطة في ١٩٥٢. والفيلم، في جزئه الأكبر، كان موائمةً أمينةً للرواية وتوجه النظام نحو تركة ناصر وتابعين يتطورن إلى درجة الإذن بالتسامح مع المعارضين. ومع ذلك، ربما لا تزال الدلالة على القيود ملاحظةً عندما يصل الأمر إلى نقد قارص مباشر لناصر في وسائل إعلام أكثر شعبية مثل فيلم، إذ شُطبت تلك العبارة منه. وهكذا كان تفصيل زكي باشا المخلص حوله في صفحات الرواية: «لقد دمر ناصر البلد وجلب لنا الهزيمة والفقر. وسيحتاج الدمار الذي أحدثه في شخصية مصر سنوات لإصلاحه. لقد علم ناصر المصريين أن يكونوا جبناء وانتهازيين ومنافقين.» ولدى سؤال بثينة حبيبته الصغيرة والفقيرة (التي تندب بعمق أيضاً تركة الثورة)، لماذا لا يزال ناصر محبوباً، يزعق زكي باشا باحتقار: «كل واحد يحب ناصرًا إما هو جاهل أو انتفع منه. الضباط الأحرار كانوا شلة أولاد من حثالة المجتمع والمحرومين وأولاد المحرومين... لقد حكموا مصر وسلبوها ونهبوها وعملوا الملايين.»

كان فيلم عمارة يعقوبيان المثال الأبرز لتقويم ثقافي مستمر في مصر لثورة ١٩٥٢

وبطريقة معاكسة لنظام ما قبل الثورة القديم الذي رُفض لمدة طويلة بواسطة المناهج التعليمية ووسائل الإعلام الحكومية كاستعماري وشرير جداً في حد ذاته. حقاً لقد عبدت الجماهير المصرية جمال صاحب الكارزمة الهائلة حتى وفاته في ١٩٧٠. وبطريقة ما، ليس من الصعب معرفة لماذا. لقد كانت هناك منافع قصيرة المدى كبيرة لحكم ناصر: تحرير مصر النهائي من السيطرة الأجنبية والتوسع في نظام التعليم وضمان الوظائف الحكومية لخريجي الجامعات وتأميم قناة السويس وبناء السد العالي وتوزيع الأرض بعدالة أكثر. فالقول بأن الضباط الأحرار «حثالة المجتمع» ربما هو شيء مبالغ فيه؛ بالتأكيد أنهم فهموا كيف سيولّد استغلال الاستياء من الأغنياء (الذين كان الكثير منهم من ناحية فنية أجنبياً) وتوفير منافع للفقراء دعماً لهم. ربما كان بعث ناصر للإحساس بالكبرياء لدى الكثير من المصريين هو الأهم لفهم جاذبيته لهم. إن هذا بالرغم من حقيقة أنه خذلهم عندما محت إسرائيل سلاح الجو المصري خلال ساعات على بدء حرب ١٩٦٧ بينما محطة راديو صوت العرب من القاهرة المدعومة من قبل ناصر، تُذيع مزاعم غريبة بنصر مصري صاعق. ومع ذلك، حتى ما اعتُبر منافع قصيرة المدي لحكم عبد الناصر أصبحت ذكريات مشوشة بعيدة بالنسبة تقريباً لمعظم النظام ذاته وجماعة صغيرة من المثقفين المتعصبين المرتبطين بأحزاب وجرائد ناصرية مختلفة. إن الذكرى السنوية للثورة هي الآن وقت للعويل بدلاً من الاحتفال، إنْ جرى الاحتفال بها بالمرة، بغض النظر عن تقدير متبقٍ، على المستوى العاطفي بالنسبة لناصر كزعيم قومي عربي ملهم ومعادٍ للاستعمار والصهيونية. وعلى مستوى من يوم ليوم، فإن إحساساً من الركود بدلاً من ذلك ينتشر بينما ينهار المجتمع ويتخلى النظام عن دور مصر التاريخي كزعيمة للوطن العربي. وكما كتبت مجلة الإيكونمست، التي تغطي الشأن المصري بذكاء أكبر من أي صحيفة غربية، حول الذكرى الخمسين للانقلاب، فإن البلاد «ليست في مزاج بهيج.» وقد أضافت الإيكونمست أن اقتصاد وسياسة مصر متوقفان «مع صراع في المنطقة المحيطة تقلل الآمال في فرج قريب. ومع ذلك، فقد قعقعت حكومة مصر في عمل أبهة واستعراضات وخطب... لقد قُصد بهذه الجلبة تعزيز الكبرياء الوطني. لكن يبدوا أنها بدلاً من ذلك تزيد في قلق بلد أصبحت تعيسة مع كلٍ من نفسها والعالم الخارجي.»

ماذا كانت حقيقة واقع نظام ناصر الثوري؟ يمكن أن يُولِّد تقييمًا موضوعيًا نتيجة واحدة فقط: لقد قاد مصر إلى كارثة عسكرية في الخارج بينما هو يهزأ من تصريحاته الكبرى بالديمقراطية والكرامة للجميع في الوطن. كان سن ناصر أربعة وثلاثين عاماً وقت الانقلاب وكان قد زار بلداً عربياً واحداً فقط، السودان، قبل الوصول إلى السلطة. لقد عرف أشخاصًا قليلين من العراقيين أو السوريين أو الفلسطينيين، بكلمات أخرى، كان أساس رؤيته للوحدة العربية حلماً وهمياً، تبخر بمجرد مواجهته الواقع على شكل تحالفات جرت محاولتها أو مجهضة مع الدول العربية الأخرى، والأكثرها شهرة مع سورية. ومع ذلك، لا يزال للتأثير المتراكم لانقلابه العسكري نتائج كارثية طويلة الأمد بالنسبة للمنطقة العربية الأوسع. وكما تجمله لورا م. جيمس في كتابها ناصر في الحرب: الصور العربية للعدو (٢٠٠٦)، فهي تقول: «كان لانقلاب ناصر أن يلهم سلسلة من التقليدات الرديئة بواسطة خلايا من «الضباط الأحرار» عبر العالم العربي – في العراق، حمام من الدم وفي اليمن، زيف وفي ليبيا، مهزلة.» ولم يكن قرار ناصر بخوض حرب بالوكالة ضد المملكة العربية السعودية في اليمن ستينيات القرن العشرين، مرسلاً ثلاثين ألف من أفضل جنود مصر إلى البلد القبلي جنوبي المملكة السعودية وهكذا تاركاً مصر بلا دفاع عام ١٩٦٧، خطأً عسكرياً تكتيكياً فقط، بل كان نفاقًا صريحًا أيضاً يأتي من رجل كان قد شجب التدخل الأجنبي في بلده هو، والذي كان سيضع الوحدة القومية العربية في قمة أجندته السياسية الخارجية. ثم مرة أخرى، كان النفاق علامة صفة ناصر من البداية. فلو لم تكن الـ CIA تقف وراء انقلاب «معادٍ للإمبريالية»، كانت لديها بالتأكيد معلومات مسبقة عنه. لقد أثبت ناصر حينها أنه مرحب تماماً للعمل مع الأمريكيين إلى أن تحولوا ضده. وحتى قوانين استصلاح الأراضي المشهورة شكلت حينها جزءاً هاماً من إستراتيجية السياسة الخارجية للولايات المتحدة الهادفة إلى منع الانتشار الإقليمي للشيوعية.

بالعودة إلى داخل مصر، ناصر، مثل زعيم لقرية صغيرة، رقى زملاءه بحسب ولائهم الشخصي بدلاً من مزاياهم. فعبد الحكيم عامر هو المثال سيئ الصيت، إذ أثبت عامر، الذي وُضع رئيساً لهيئة الأركان ولاحقاً النائب الأول للرئيس ناصر، أنه غير كفء إلى أبعد الحدود. وقد تخلص ناصر منه بعد نصيحته العسكرية المعتمدة على تفكير وهمي

وعلى شغف أبدي بإبهاج صديقه القديم بدلاً من المخاطرة بإهانته بتقديم حقائق الوطن القبيحة أمامه، النصيحة التي قادت مصر إلى هزيمة ١٩٦٧. وسريعاً كان قد شكل الضباط حول ناصر، عامر وآخرون من قادة الانقلاب، مراكز قوىً بذلت كل جهودها في تصارع على السلطة حدث لاحقاً. لم يكن لدى هذه النخب الفاسدة الجديدة أي من الصفات الإيجابية التي كانت للارستقراطية المنحلة سابقاً لكنها متقدمة جداً ثقافياً، الارستقراطية التي كان ضباط الانقلاب استبدلوا أنفسهم بها وأذلوها. لقد فعلوا من مواقعهم السلطوية الجديدة ما يفعله مثل هؤلاء الناس دائماً: يتاجرون على أساس تأثيرهم وينتزعون نصيبهم من كل صفقة واردة أو صادرة من السلاح حتى الليمون، ويتربحون من سلب (اقرأ: السرقة) العقارات – كل ذلك باسم الجمهورية وشعبها.

تلك كانت فقط البداية. فالصحافة، التي كانت قد تمتعت بحرية كبيرة لمدة تزيد على نصف قرن تحت الملكية المدعومة بريطانياً، ثم تأميمها في ١٩٦٠ بعد سنوات من الإكراه. و«رؤساء التحرير» الموالين المعينين من قبل ناصر شخصياً على الصحافة القائمة أصبحوا ملكيين أكثر من الملك. فمحمد حسنين هيكل، الذي وُضع محرراً للجريدة الأكثر مبيعاً، الأهرام، والتي تم تأسيسها في منتصف القرن التاسع عشر، سيصبح الصحفي المصري الأكثر شهرة. وكان عموده كل جمعة أسبوعياً قراءة ضرورية لأولئك الشغوفين لمعرفة ما كان يفكر به ناصر نفسه. وهذه الحقيقة وحدها تهمة رهيبة لوسائل الإعلام المطبوعة لتلك الفترة. لقد ادعى كثيرون بأن هيكل كان أكثر قليلاً من كونه دعائيًا ورقيبًا ناصر الرئيسي، ولا يهم كم كانت عبارته أنيقة. لقد اتُهم هو والمحررون الآخرون بتمزيق جوهر صحف مصر العظيمة. فالصحف الحكومية الرسمية تستمر في الصدور اليوم وفيها مانشيت الصفحة الأولى الإجباري يحيي آخر تصريحات مبارك الفارغة حول المواضيع الداخلية والدولية فقط بسبب حقن التمويل من الحكومة الاستبدادية وما يقارب احتكار للإعلانات التي تحافظ عليهم أحياء.

لقد منع ناصر أحزاب المعارضة السياسية التي كانت بالمثل قد انتعشت في مصر ما قبل الثورة، فكانت النتائج كارثية بنفس القدر. وتم إدخال نظام الحزب الواحد الذي ضمن احتكاراً عسكرياً للسلطة السياسية، مع ظهور ناصر، الذي لم يدخل انتخابات مطلقاً،

كأعظم سلطة بعد صراع داخلي على سلطة مرير مع زعيم الجمهورية الأول، الجنرال محمد نجيب. ومثل ما حدث لكتّاب الأعمدة في الصحف فقد تم إرهاب الهيئات التنفيذية التي أُنشئت للحفاظ على الضوابط والتوازنات في أعقاب الثورة. وفشلوا أيضاً في تقديم نقد جوهري لتجاوزات متآمري الانقلاب. وأُنشئ جهاز أمن واستخبارات واسع للتجسس على الجماهير ويسيطر على الجماهير التي فاقت حتى شبكة تجسس الملك فاروق، الملك التعس ليكون في الحكم، وعزز الجهاز قبضة الضباط الحديدية على السلطة.

لقد اعتقل ناصر وعذب عشرات الآلاف من الإخوان المسلمين (تأسسوا عام ١٩٢٨ كجمعية خيرية شعبية بهدف عودة الجماهير لأصول الإسلام – كما يفسرها الإخوان)، وعشرات منهم عُذبوا حتى الموت. وربما سيد قطب من أشهرهم الواضع بطرق شتى الأسس الفكرية للإرهاب الذي كان له أن يصيب فيما بعد كالوباء مصر ودول عربية أخرى في العالم العربي وفيما أبعد منه. ومن نجا من حملة التطهير هرب إلى منفىً مؤقت في دول الخليج المحافظة بشكل متطرف. هناك انغمس الإخوان في الأيديولوجيا الوهابية المتطرفة التي رعتها العائلة الحاكمة السعودية. إن الوهابية غريبة عن التقاليد الإسلامية التعددية المتسامحة المصرية، لكن كاد للإخوان أن يجلبوا الوهابية معهم فعلاً عندما دعاهم السادات للعودة إلى البلاد في سبعينيات القرن العشرين ليواجه الماركسية التي كانت قد نشأت لمعارضة حكم ناصر. وكثير من زعماء الإخوان المسلمين المتبقين في الوطن شنقوا. وكانت النتائج الثقافية طويلة الأمد لهذه الوهابية المستوردة مأساوية، خاصة لأقلية البلاد المسيحيين. فقد لُعنوا – سوية مع اليهود والصوفيين – «ككفار» من قبل الأيديولوجيا الوهابية، إن لم يكن من قبل سياسة الإخوان المسلمين الرسمية.

ومع ذلك، أصبح المدى الذي كان الضباط الأحرار مستعدين للوصول إليه في تحطيم حتى المنافسين العلمانيين غير الراديكاليين باسم حرية الشعب واضحاً عندما حوكم وأُعدم زعماء احتجاج العمال في الأشهر التي أعقبت الانقلاب. لقد بعثت المحاكمة الصورية رسالة لأي شخص قد يتجرأ على إعلان صوت معارض.

ثم خلال سنوات قليلة أرسى ناصر القواعد لدولة بوليسية وحشية تحكمها ديكتاتورية عسكرية اختارت واحداً من بين صفوفها كرئيس بسلطة مطلقة تقريباً. لقد

بقيت مصر تحت نوع من قانون الطوارئ (يمكن القول أنه حكم عسكري) كل المدة من ١٩٥٢ فيما عدا ثماني سنوات. وبحسب أمنستي انترناشيونال فإن ثمانية عشر ألف شخص معتقلون حالياً في مصر بدون تهمة. وقد قوبل تعهد ٢٠٠٧ بإزالة قانون الطوارئ أخيراً بسخرية عالمية، لأن النظام أدخل في ذات الوقت تغييرات دستورية جعلت أسوأ جوانبه دائمة البقاء. وكما تُرى تلك المناورة المهزلة، فإن نظام مبارك العسكري هو تلميذ مخلص لمدرسة ناصر. لقد تبين هذا بوضوح أكثر في كراهته للمخاطرة بخسران السلطة بجعل مؤسسات البلاد ديمقراطية حقيقةً وهكذا إطلاق العنان للرأي العام، خاصة الآن حيث يجد الرأي العام غالباً تعبيره الأكثر صخباً (عبر غلطة النظام ذاته) في نوع الاتجار-المقيت بالكراهية الذي يجعله الأصوليون الإسلاميون بديلا للجدل الحقيقي في كل مكان. ولا تزال شخصيات قضت فترة تدربها المهني في نظام ما قبل وفاة ناصر تدير المؤسسات بدرجة كبيرة.

إن مبارك، دون أي شك حول موضع ولاءاته الشخصية الخاصة، وصف الثورة بأنها «المجد المتوج لنضال الشعب المصري» عندما أحيا ذكراها الخمسين في خطاب لخريجي كلية القاهرة العسكرية خاصته.

هكذا، تظل آليات هذا النظام الاستبدادي المتعفن الذي أسسه ناصر متماسكة إلى هذا اليوم رغماً من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الدراماتيكية لمدة أكثر من خمسين عاماً في مصر. ومما لا يثير الدهشة أنه بسبب ذلك قد نشأ حنين متنام لفترة ما قبل الثورة التي استفاد منها ببراعة فيلم عمارة يعقوبيان، الفترة التي يراها الآن المثقفون الليبراليون ذوو التوجه الغربي والناس العاديون المشغولون بكسب ما يسند رمقهم على السواء على أنها العصر الذهبي المفقود. والدليل موجود في كل مكان. فبعد الثورة مُنعت الألقاب الشرفية غير الموروثة مثل باشا (وهي مرتبة عالية في نظام الإمبراطورية العثمانية السياسي) وبيه (الرتبة الأقل بدرجة من باشا)، دال هذا المنع بذلك على أن الهرمية والاختلاف التقليدي لم يعودا في المشهد. ومع ذلك، انبعثت هذه الألقاب من جديد مُستخدَمة للسخرية في الأغلب من جانب طبقة الموظفين وخلفاء كادر الوزراء والضباط ذوي الرتب العالية والوكلاء الذين كانوا قد سعوا لإزالة مثل هذه التسميات «الإقطاعية.» ويعود اتضاح

التغير في مصائر مثل هذه الألقاب إلى تسعينيات القرن العشرين، ففي تلك الفترة، انتحاء عجوز مصرية، كانت قد انتقلت إلى أستراليا بعد الانقلاب بوقت قصير، لكنها عادت للمرة الأولى للمساعدة في تطوير منهاج في مدرسة اللغة العربية حيث كنت أدرس، حدثني جانباً بعدما سمعتني أنعت مصريًّا عرفته بباشا ونصحتني بجدية قائلة: «إنه سيغضب جداً إن استخدمت ألقاباً مثل ذاك.» وفيما بعد سألت معلمتي إن كان هذا صحيحاً، فضحكت في نفسها أثناء شرحها بأن العجوز يبدو أنها لا زالت تعيش في مصر خمسينيات القرن العشرين.

إن التغيرات السلبية التي جلبها الانقلاب هي في الوقت نفسه موضوع لسيل من الكتب لا تُحصى. واحد منها مهما حدث للمصريين؟ التغيرات في المجتمع المصري من ١٩٥٠ إلى الوقت الراهن لمؤلفه جلال أمين عالم الاجتماع المصري ذي الاحترام، يندب التدهور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في مصر ما بعد الثورة عبر المقارنة بقصص ساحرة من طفولته من حقبة ما قبلها. لقد نال هذا الكتاب جائزة راقية في معرض الكتاب الدولي في القاهرة عام ١٩٩٨، واستمر يبيع الكثير جداً من النسخ في العربية والإنجليزية لدرجة أن أمين نشر منشورات متابعة حققت أفضل المبيعات بعنوان: مهما حدث أيضاً للمصريين؟ من الثورة إلى عصر العولمة. إن أمين بالكاد وحيدٌ في ذلك، فليلى أحمد الأكاديمية المقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية والمولودة لعائلة من طبقة القاهرة العليا خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، تكتب في مذكراتها ممر الحدود (٢٠٠٦): «كبرت في آخر أيام الإمبراطورية البريطانية، ونقع طفولتي في ذاك الزمن عندما لم تكتسب بعد كلمات «إمبريالية» و«الغرب» الايحاءات التي لها الآن.» إن هذا الكتاب واحد من كثير من المذكرات التي نشرها في الغرب مصريون يحاولون استعادة ماضيهم لما قبل الثورة، يصور كتاب ممر الحدود غنائياً كيف أن كثيرًا من عائلات الطبقة الوسطى والطبقة العليا لم يجدوا أي تناقض بين وطنيتهم المخلصة والنشطة غالباً وحقيقة أنهم كانوا شغوفين بالعهد بتنشئة أطفالهم، محاكاة ، لغربيين، من الصعب الافتراض بإمكانية الاعتماد عليهم في تنمية مشاعر معادية للاستعمار بين واجبات عملهم. إن كتاب ليلى أحمد يستفيد بشكل جميل من جيل كبر في مجتمع كزموبوليتاني متطور، حيث الاهتمام بتميز الفرد الشخصي فيه يساوي

obeikandi.com

الاهتمام بطموحاته الوطنية.

لقد كان وقتاً تلطفت فيه الفوارق الاجتماعية المصرية المؤكدة وتلاعب القوى الخارجية السياسي الاستغلالي بواسطة ثقافة رفيعة مهذبة من التسامح والكوزموبوليتانية والفكر والبذخ العمراني التي استوردها الأجانب وجنتها الأرستقراطية العثمانية الغاربة، الثقافة التي ستستمد الحركة الوطنية المصرية منها أملاً حيث وُلدت معارضة للحكم البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر. فهكذا تمكن سعد زغلول الزعيم الوطني المصري العظيم، الذي حرك نفي البريطانيين له بالقوة في ١٩١٩ الجماهير لتبدأ ثورة صغيرة أدت فعلياً إلى استقلال جزئي، أن يقول باعتدال عن الغربيين في بلاده: «ليس لي أي مشكلة شخصية معهم... لكنني أود رؤية مصر مستقلة». إن هذا الجدل الذي اجتاح حقبة ما قبل الثورة يصور المصريين كمتبنين لأفضل ما كان على العالم أن يقدمه؛ وكانوا أقل تديناً مكشوفاً مما هم عليه اليوم، لكنهم أكثر أخلاقية وبانسجام كانوا أكثر احتراماً للرسالة الحقيقية المُبطِنة للإسلام التي تجد تعبيرها في الأعمال الصالحة بدلاً من مجرد الالتزام بطقوس دينية متزمتة والإصدار الذي لا يُحصى لفتاوٍ غامضة وحاضة على الكراهية غالباً. فعلماء تلك الحقبة الإسلاميون الشغوفون بمزج الإسلام بالحداثة والديمقراطية، خضعوا حتى القرآن لبحث وتحليل عقلانيين.

لقد أُعيد الاعتبار حتى للملك فاروق، ففي رمضان/ سبتمبر ٢٠٠٧ أصبحت سلسلة حلقات متلفزة تصور صعود وهبوط الملك مركزةً على «جانبه الإنساني»، البرنامج الأكثر شعبية في الوطن العربي وفي مصر بالنسبة لأولئك الذين يملكون تلفزيوناً فضائياً. لقد أنتجت المسلسل قناة MBC الفضائية التي تملكها السعودية، وتم بثه أيضاً على قناة أوربت الممولة سعودياً ذات الشعبية المساوية للـ MBC. لكنه لم يُعرض بدايةً على التلفزيون الوطني المصري الذي كما يُقال كتب النص له منذ نحو خمسة عشرة عام مضت. إن الحكومة المصرية رفضت تمويله لأسباب سياسية، وليس من الصعب التكهن بأن قرار MBC بإنتاجه، رغم الجهود المصرية الرسمية لإعاقته برفض إعطاء إذن للطاقم بالتصوير في موقع القصور الملكية وأماكن الحياة الحقيقية الأخرى، ربما كان على الأقل أيضاً سياسياً جزئياً. فلم يضيِّع كتاب أعمدة الصحف الممولة سعودياً وقتاً مبرزين

الفضائل المفترضة للملك أثناء مدحهم سلالاتهم الخليجية الحاكمة، التي نجت من محاولات ناصر لتقويضها. وتنازل التلفزيون المصري للضغط التجاري بعدما أثبت المسلسل أنه واحد من أكبر الأعمال التلفزيونية الرمضانية الناجحة من سنوات، ليعلن أنه سيبث إعادة له وقت الذروة.

بعد ذلك اليوم المصيري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لقبت «باريس النيل»، كما أعاد الأجانب تسمية القاهرة بود، والذين اندفعوا أفواجاً إلى المدينة ليساعدوا في تصميمها وبنائها وإدارتها خلال القرنين التاسع عشر وبداية العشرين إلى مزبلة التاريخ كما يُقال. فأصبح الصدام بدلاً من الصداقة بين المصريين والأجانب شغلاً يومياً. حقاً، صودرت أملاك الأجانب، ومع ذلك في الوقت نفسه إما اختارت الأرستقراطية ذاتها الرحيل فعلياً أو، بعد حرب ١٩٥٦، أُجبروا على الهرب. وكان المثال على نوعية خوف ناصر من الأجانب طرده لنصف يهود مصر الذين ربطتهم آلة دعاية النظام بلا نهاية بدولة إسرائيل المنشأة حديثاً. كان هذا واحداً من عدد من اصطياد الساحرات الذي استخدمه ناصر (والإخوان المسلمون الاستهداف الآخر) لتحويل الانتباه عن عيوبه هو، خاصة في مجال السياسة الخارجية. وفي حالة اليهود، بالكاد قُوضت العملية بالجهود الخرقاء للدولة اليهودية نفسها في محاولتها تجنيد وتمويل خلية صغيرة من يهود القاهرة لينفذوا هجمات إرهابية في المدينة في محاولة لإثارة صراع اجتماعي واضطراب سياسي. إلا أنه، إن قُيمت الديمقراطية بشكل أفضل عبر الحماية التي توفرها لأقلياتها الدينية والأخرى، فحقيقة أن ثلة من اليهود بعدد أصابع اليد متبقية في القاهرة، بينما الكلمات «يهودي» و «إسرائيلي» تصبحان مرادفتان لدى المصريين أنفسهم في مناقشات عرضية معادية للسامية، تُعبر بشكل ضخم عن تركة ناصر «الديمقراطية»، كما تفعل حقيقة أن كنيس القاهرة الرئيس محاط الآن بأمن يوفره الجيش على مدار الساعة.

قال الباحث العربي-الأمريكي فؤاد عجمي. الآن يقع في قلب الحياة المصرية حس رهيب من خيبة الأمل. والعجمي له احترام كبير كمراقب للاتجاهات السياسية والثقافية العربية لكن تم انتقاده بعد دفاعه المتحمس عن الغزو المنحوس المُقاد أمريكا للعراق في ٢٠٠٣. فالعجمي يحاجج في مقال دقيق بشكل مميز بشأن الحنين المصري منشور في

الفورن أفيرز عام ١٩٩٥، بأن كبرياء مصر الحديثة كان أكبر كثيراً من إنجازاتها وأن النتائج الكئيبة في كل مكان: «فقر الطبقة الدنيا والمشهد السياسي القاحل السامح لضابط عادي أن يستغل السلطة السياسية ويُقزم جميع المنافسين المحتملين في المجتمع المدني وغرق البلاد في صراع طائفي بين المسلمين والأقباط والدولة البائسة في حياتها الثقافية والتعليمية.» ويحاجج العجمي بأنه نشأت من خيبة الأمل هذه «موجة قوية من الحنين» للفترة الليبرالية الفاصلة في السياسة المصرية من عشرينيات القرن التاسع عشر حتى ثورة ١٩٥٢، عندما حُكمت مصر بديمقراطية برلمانية وملكية دستورية – «لحياتها السياسية النابضة ولصحافتها النشطة آنذاك، للثقافة الممتازة بطبقة أدبائها وفنانيها، لنسائها المتحررات الصريحات اللواتي نقشن لهن مكاناً في سياسة وثقافة وصحافة البلاد»، مستخلصاً أن بعض هذا «هو حنين مثالي لمجتمع مهموم مزدحم إلى زمن من البهاء والبراءة المفقودين»، مضيفاً أن: «بعض هذا، مع ذلك، تعبير مشروع عن الاستياء من متوسطية الحياة العامة.» ويستخلص العجمي أن «مصر أنتجت سينما أفضل وأكثر حرية في «العصر الليبرالي» عنها اليوم، بينما «كانت شخصياتها المثقفة عمالقة غالبوا المواضيع الكبيرة لذلك الوقت وأعطوا الأدب المصري والعربي لحظة من الروعة لا جدال فيها.»

لقد تعمق الاحساس باليأس والحنين المرافق له في العِقْد منذ ظهور مقال العجمي. فقد قال عوض المر القاضي الرئيس السابق للمحكمة الدستورية العليا المصرية في الذكرى الخمسين للانقلاب: «لا أعتقد أن ثورة ١٩٥٢ كان لها أي صفات إيجابية مذ أن الديمقراطية لا تزال مفقودة»، وفشل الثورة الأعظم هو فقدان الديمقراطية الذي في اعتقادي أدى إلى هزيمة ١٩٦٧. إن مصر لم تنعم بحكومة ديمقراطية أبداً من ١٩٥٢ حتى الآن... والثورة تبنت شعار 'ارفع رأسك يا أخي فعهد الظلم ولى.' لكنها استبدلته بقدم جمال عبد الناصر الثقيلة التي أبقت رؤوس الشعب مطأطأة.« إنه لمحير من اللمحة الأولى أن يأتي ذلك الانتقاد من أحد أعمدة مؤسسة ما بعد ناصر، رغم أن القضاء قد أثبت أنه كان شوكة في خاصرة النظام: لقد طرد ناصر باقتضاب مئات من القضاة الرائدين الذين اعترضوا على حكمه الاستبدادي. وبحلول عام ٢٠٠٦، في الحقيقية، كان قد أصبح أعلى قضاة البلاد، المحتجين على الانتخابات الفاسدة بشكل كامل التي أُنيط

بهم دستورياً الإشراف عليها لكنهم مُنعوا من مراقبتها بفاعلية من قبل نظام مبارك، الزعماء غير الرسميين لحركة احتجاجية على مستوى الوطن اعتمدت على كل شرائح المجتمع المصري: المثقفين العلمانيين والطلاب ونشطاء العمال والإسلاميين أصحاب الاتجاه السائد. لقد بدى لبرهة أن النظام كان ينهار من قبل قوىً تُعارض حكمه من داخل وخارج مجالات تأثيره المباشر، إذ شهدت مصر الاضطرابات العلنية الأشمل منذ السنوات التي أدت إلى الثورة. وهذه المرة، مع ذلك، كان المصريون والمتظاهرون يحتشدون ضد الركود السياسي ووحشية حكم الرئيس مبارك الفجة. إن مبارك، مثل سلفه (خليفة ناصر) أنور السادات، رجل عسكري، آخر حارس للمؤسسة العسكرية المعادية للديمقراطية والفاسدة التي أنشأها ناصر والتي لا تزال تقبض على مجتمع البلاد المدني بملزمتها الصدئة.

ومع ذلك، بينما وضع ناصر قيوداً شخصية صارمة على مقدار التنازل المستعد لإبدائه في حكم البلاد للبريطانيين ومن بعد للولايات المتحدة، وتأميمه لقناة السويس عام ١٩٥٦ في حركة إستراتيجية رائعة وضعت بفاعلية نهاية للهيمنة الاستعمارية البريطانية لمصر والمنطقة الأكبر، فإن مصر هذه الأيام تحت حكم مبارك بالمقارنة هي أكثر اعتماداً على الولايات المتحدة سمسار القوة الاستعمارية الجديدة في المنطقة. لقد قال الزعيم العراقي الراحل صدام حسين الذي عرف شيئاً أو اثنين حول طريقة الاستبداديين العرب المنخرطين في المسايرة والتعامل والمساومات كي يتشبثوا بالسلطة، ملاحظة ذكية عن مبارك بأنه «مثل التليفون الذي يعمل بالنقود. أنت تضع نقودك، وتحصل على ما تريد بالمقابل.» أي أن استمرار النظام المصري في الاعتماد على تدليل أمريكا، التي تدفع منذ توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ نحو ملياري دولار سنوياً على هيئة مساعدات عسكرية (اللذان يراهما البعض كرشوة للحفاظ على سلام بارد مع الدولة اليهودية)، هو إهانة شديدة بالنسبة للمصريين العاديين. فأولاً، هم لا يرون أي فائدة من النقود على الإطلاق إذ يرون تنامي الهوة الدائم بين الأغنياء والفقراء، ربما بأهمية أكبر في بلد متجذر فيه الكبرياء الوطني عميقاً، وهم أيضاً يرفضون المغامراتية العسكرية الفجة الأمريكية في المنطقة وتآمر زعمائهم فيها. وهذا ليس على الأقل بسبب تعاطفهم مع

القضية الفلسطينية وغزو المحافظين الجدد للعراق، هذا الغزو الذي يراه المصريون على أنه جاء تنفيذاً لتوصية من عصبة في واشنطن متحالفة مع إسرائيل.

إن مصر، بعد أكثر من خمسة عقود من الانقلاب، عادت إلى المكان الذي كانت عليه قبلها. فنفس المظالم التي أدت بالشعب إلى التمرد وليتخذ الضباط الأحرار فائدة من ذاك التمرد للقبض على السلطة، هي الآن في أساس احتجاجات الشارع الجديدة والمقالات المعبرة بمرارة في وسائل الإعلام الوليدة الخاصة بالمعارضة: إنهاء الاستعمار وعملائه وهيمنة رأس المال المستغل على الحكومة وتجاهل العدالة الاجتماعية والحاجة إلى نظام حكم ديمقراطي يُقدم أفعالاً أكثر من الأقوال لمطالب شعبه. وبوجود نجل الرئيس جمال مبارك المغرور المهذب، كأنه ولي العهد، الذي يُرى كمهيئ لنفسه ليستولي على الرئاسة من والده المريض، فإن قليل يمكنهم رؤية أي اختلاف ذي معنى بين النظام الحالي والملكية التي أُطيح بها من خمسين سنة باسم تحرير الشعب المصري. إن الحنين إلى الملكية ليس مختلفاً عن حنين الأصوليين إلى طهرانية زمن النبي وأصحابه، رغبة تواقة لزمن أفضل من الحالي عندما يكون الحالي كئيبًا جداً.

حتى مع قبول التأثيرات السيئة المؤكدة لحكم استعماري مباشر أو غير مباشر، فإن النظام المصري الحالي يعملُ بشكل سيئ في كل مجال عند مقارنته بملكية ما قبل الثورة التي ساعد على قيامها غزو نابليون بونابرت قصير المدة لمصر. لقد قضى انقلاب ناصر على كل شيء كان جيداً في مصر، وببطء استبدل كل شيء كان سيئاً بشيء أسوأ كثيراً. إن محاولة نابليون لغزو مصر والإذلال على يد بريطانيا التي أنهت الغزو، أدى عن غير قصد إلى ميلاد الدولة القومية المصرية الحديثة، التي كان لها أن تتطور خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحسب خطط أوروبية تحت قيادة الأكثر بروزاً محمد علي وحفيده الخديوي إسماعيل. لقد كان لمحمد علي المُشار إليه عادة بـ «مؤسس مصر الحديثة» ولنسله أن يحكموا البلاد بدرجات متفاوتة من السلطة الملكية حتى حفيده الملك فاروق الذي أطاح ناصر به أخيراً في ١٩٥٢.

بعد رحيل الفرنسيين عن مصر، بقي جيش الإمبراطورية العثمانية، الذي كان قد حكم من ١٥١٧، في البلاد وقرر منع سلطة وحكم مملوكي ذاتي منافس ووضع مصر تحت

سيطرة الحكومة المركزية. لقد كان المماليك، وهم أرستقراطية بيضاء من العبيد، قد حكموا مصر كدولة مستقلة من ١٢٥٠ وحتى ١٥١٧، ومن وقتها بقوا كمواطنين عثمانيين ليشكلوا الطبقة الرائدة في المجتمع المصري. وفي القرن السابع عشر، مع ذلك، استعادوا السلطة وجددوا لمدة مائتي عام صفوفهم عبر أسواق العبيد، أثناء ما كانوا يحكمون بالطغيان. وفي فوضى رحيل نابليون نشأت طبقة ثالثة ذات إمكانية للحكم والتي باهتمامها بالمنافسة بين المماليك والحكومة العثمانية استفادت من كتيبة البانية موالية اسمياً فقط من القوات العثمانية التي كانت قد جاءت إلى مصر عام ١٨٠١ م لمحاربة الفرنسيين. كان محمد علي نفسه يقود الكتيبة وهو مرتزق وصل مصر كقائد صغير في القوات الألبانية، وبحلول ١٨٠٣م ، كان قد ارتقى إلى رتبة قائد. وبعد تعزيز قاعدة قوته وانتخاب مشايخ القاهرة الدينيين الأقوياء له حاكماً في ١٨٠٥ م ومنح العثمانيين لقب نائب الملك له، وضع خططاً للقضاء على منافسيه. ففي مارس ١٨١١م ، نفذ ذلك بطريقة مذهلة إذ اغتال أربعة وستين مملوكاً – بضمنهم أربع وعشرين بيه – بعد دعوتهم لحفلة رسمية، وأصبح بهذا الرجل القوي الوحيد في مصر وحصل على فرصة فريدة لتوحيد بلاد تترنح على شفى فوضى شاملة.

تضمن أحد طموحات محمد علي العظيمة الفصل الفعلي لمصر عن الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، أدرك أن على مصر كي تحقق هذا الهدف أن تكون قوية اقتصادياً وعسكرياً. لذا فقد غازل الأوروبيين من البداية مهدياً كنوز لباريس ولندن أثناء تفاوضه مع قوة واحدة أولاً ثم مع الأخرى، فمسلة رمسيس الثاني تقف في قصر باريس دي لا كونكرد إلى اليوم، كما وتقف مسلة كليوباترا على جسر نهر التايمز في لندن. وبعمل محمد علي لساعات طويلة وزيارته الشخصية لمشروعاته الأثيرة، راح يبني مصانع جديدة مستوردة في صناديق من أوروبا، محيطاً نفسه بمستشارين أوربيين ماهرين وغمس نفسه في التكنولوجيا المتقدمة لذلك الوقت – ضاحكاً من القلب، مثلاً، عندما أُوضح له كيف تعمل الكهرباء بإعطائه صعقة بسلك فيه كهرباء. لقد جمع الرجال الأكثر موهبة قابلهم في القاهرة، الأفراد الماهرين والمخلصين ذوي الخلفيات كمستشارين خاصين له مثل المهاجرين الأرمن والأقباط الخبراء مالياً، مشكلين بيروقراطية وجيشاً جديدين يستجيبان له فقط. وسمح الحكم المركزي والسلطة التي كانت له بين مواطنيه لهذا الألباني المولود في

مقدونيا بتبني أنشطة هامة وضعت القواعد لنظام التعليم المصري وبعثت حياة ثقافية وأصلحت النظام الزراعي - فالزعيم دائماً ينظر إلى باريس من أجل الإلهام. إن الأفكار حول السياسة والمجتمع والثقافة التي وُلدت في الأجيال اللاحقة تعود إلى هذه الفترة؛ لكن حتى بحلول نهاية حكمه هو، امتلكت مصر فيالق من البيروقراطيين المدربين فنياً وضباط جيش ملتزمين بإصلاح متغرب وحكم ذاتي مصري.

عزّز محمد على بشكل هام نمو القطن للتصدير لمصانع حلج القطن المتوسعة الأوروبية،الذي ستمول فوائده اقتصاد يزدهر تحت حكم حفيده الخديوي إسماعيل، الذي حكم من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩. وبسبب توقف استيراد القطن الأمريكي خلال الحرب الأهلية ١٨٦١ إلى ١٨٦٥، ارتفع سعر القطن المصري بينما تطلعت بريطانيا بفارغ الصبر حتى أكثر من أي وقت مضى إلى مصر لتزويد ليدز ومانشستر بالقطن. لقد راح إسماعيل بهذا التدفق المفاجئ للمال يدرك بشكل أكثر اكتمالاً طموح جده لإقامة إنشاءات عامة كبيرة: القنوات واستصلاح الأراضي والمباني الحضرية والبنية التحتية. ففي عام واحد فقط راح يبني أربعمائة وأربعين جسراً وأربعة وستين مصنعًا لتكرير السكر وتقريباً الف ميل من السكك الحديدية. وأنشأ أيضاً اتحاد البريد العام، وأقيمت أسلاك برق بعيداً حتى السودان؛ وتمكنت مصر سريعاً من التفاخر بواحد من الخدمات البريدية الأكفأ في العالم. لقد سقطت أخيراً إلى الأبد صورة البلاد كموضع خلفي منعزل بدائي من الإمبراطورية العثمانية محكوم بطبقة من العبيد، إذ اندفع مهندسون معماريون وفنانون وموسيقيون سريعاً إلى القاهرة والإسكندرية المدينة الساحلية على المتوسط.

كانت زيارة إسماعيل إلى معرض يونيفيرساليه في تشامب دو مارس الباريسي في ١٨٦٧م تجربة مغيرة للحياة، وكان لها بصفة خاصة نتائج حاسمة بالنسبة لمصر. فقد أعلن بشكل شهير بعد ذلك فوراً: «لم تعد بلادي في أفريقيا؛ نحن الآن جزء من أوروبا.» لقد اغتنم فرصة افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ ليبني ضواحي جديدة على النمط الأوروبي، بمتنزهات رائعة وشوارع واسعة وقصور لاستضافة زواره الأوروبيين – راغباً أن يعمل للقاهرة ما عمله البارون جورجز هوسمان لباريس. وفتح أبواب المجتمع والاقتصاد المصريين لكثير من الأوروبيين، وبعد سيطرة البريطانيين على الخزانة المصرية (وبذلك على

البلاد) عام ١٨٨٢، بعد أزمة مالية دبروها بفاعلية، اندفع مئات الألوف من الأوروبيين إلى مصر وسكنوا في القاهرة والإسكندرية بحثاً عن الشهرة والثروة. لقد أسسوا أحياءهم الخاصة بهم وأنشؤوا وأداروا مؤسسات على النمط الأوروبي. وكان قد وضع إسماعيل حرفياً الأسس في القاهرة، معبداً شوارع وطرق طويلة ومنشئاً حدائق ومتاحف ومبانٍ شققية ومسارح ونوافير على النمط الفرنسي ودار أوبرا من المستوى العالمي (كانت عايدة فيردي بسيناريو كتبه ماريتي باشا قد عُرضت لأول مرة في القاهرة في ديسمبر ١٨٧١). وترعرعت مدينة أوروبية حقيقية بين ميدان العتبة والنيل، وانتشرت الطبقة المصرية الوسطى الجديدة باتجاه الشمال. وكما كتبت سانثيا منتي في باريس النيل، العمران في القاهرة من الحقبة الجميلة (١٩٩٩)، فإن سكان وزوار القاهرة تمكنوا من إيجاد «مكتبات لبيع الكتب الفرنسية والإنجليزية وقاعات الشاي ومقاهي الأرصفة ومحلات الأزياء والمعارض الفنية والمتاجر... وبنيت متاحف أسطورية: فندق شيبرد وسافوي وسيراميس وقصر عدن. وفيما بعد، دور سينما وأُضيفت حلبات التزلج للتسلية المحلية».

بحلول سنوات ما بين الحربين العالميتين في أوائل القرن العشرين، وبعدما كانت قد نالت مصر من البريطانيين سيادة اسمية وجرى حكمها من قبل ملكية دستورية وديمقراطية برلمانية في كل المجالات ما عدا الأمن القومي والسيطرة على قناة السويس، صارت القاهرة المدينة الأكثر كزموبوليتانية في العالم. لكن بعد ستة أشهر قبل ثورة ١٩٥٢، وفي يوم يتم تذكره بالسبت الأسود، أحرق غوغاء معادون للبريطانيين معالم القاهرة الغربية، بضمنها نادي سباق الخيل، وفنادق كبيرة وبنوك ودور سينما ومساكن، وحُولت قاهرة إسماعيل بدرجة كبيرة إلى رماد متروكة تحترق تحت غطاء سميك من الدخان، فما كان من الضباط الأحرار إلا أن يخطفوا الاضطراب الشعبي ليقبضوا على السلطة. وعندما فعلوا هكذا بعد ذلك بستة أشهر، لم يرثوا الثروة فقط وفساد النخبة السابقة بل أيضاً المسؤولية عن إعادة بناء المدينة العاصمة.

كتب مؤلف وفنان وناقد القرن التاسع عشر، جون رسكن: «الهندسة المعمارية هي الفن الذي ينظم ويزين الصروح التي ينشئها الإنسان... والتي مرآها يساهم في صحته العقلية وقوته وسعادته». ولن يؤيد أحد هذه المشاعر بقوة أكثر في قاهرة هذه الأيام من

سمير أ. رأفت المؤرخ الهاوي البارز وحفيد عائلة أرستقراطية. رأفت، الرجل الساحر تماماً والتي تجعل مناقشته الساعات دقائق، وثَّق بأناة ماضي المدينة المعماري خلال العقود القليلة الماضية أثناء ما كان ينهار أمام ناظريه. لقد نُشر كثير من بحوثه في القاهرة، سنوات المجد (٢٠٠٣)، الذي يلعن «الدولة الاشتراكية» تحت حكم ناصر وخلفائه كـ «مالك جديد وعقيم» للمدينة».

إن رأفت يكتب في مقدمة الكتاب بأنه إذا أخذنا التدهور الحالي والازدحام والتخطيط العشوائي في الحسبان، قد يبدو من الصعب فهم أن القاهرة كانت ذات مرة مدينة جذابة عمرانياً. لكن الفترة من نهاية القرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين «شهدت ازدهاراً عمرانياً لا يُبارى، بتشكيلة من الأنماط موجودة جنباً إلى جنب: الباروك والكلاسيكي الجديد والفن الحديث وفن الديكو والروكوكو الخديوي والاستعماري والباهاوس والنهضة الإيطالية والأرابسك والفرعوني الجديد. لقد أنتج هذا سوية حشد اتفاقي من مبانٍ رائعة.» وفي المقابل، بين ١٩٦٠ و ١٩٩٠ «تقريباً يمكن الكتابة عن جميع البناء شرق وغرب النيل كفارغ من أي جاذبية معمارية.» فالمستأجرون الجدد لما كان يوماً مبانٍ عظيمة «تراجعوا إلى إرهاب الأجانب. ومسؤولياتهم المدنية لا تتجاز عتبة الدار.» وفي سبعينيات القرن العشرين تحت حُكم السادات طُبقت سياسة الانفتاح الاقتصادي الجديدة، مما فاقم الهوة أكثر بين الأغنياء والفقراء وولدت جيشاً جديداً من مليونيرات ما بين عشية وضحاها الذين شكلوا الطبقة الثانية الغنية: «أطباء ذوو أجور عالية ومصرفيون ومحامون عملهم الأساسي هذه الأيام حفظ الأغنياء الجدد أصحاء وقادرين على سد ديونهم والبقاء خارج السجن». لقد كانوا، مثل الضباط الأحرار، رجالا بلا ذوق أو رؤية أو مسؤولية مدنية وهم يستمرون بالهرب من المدينة إلى مبانٍ شققية جديدة كريهة مكتفين فيها بذواتهم، مبانٍ بلا روح منتصبة في ضواحيها، مظهرة هناك بالإسمنت نوع من عقلية حضرية المملكة العربية السعودية، وأثناء ذلك، تُركت ضواحي قلب المدينة التي كانت يوماً عظيمة للانحلال.

أخبرني رأفت قائلاً: «كل ما أراه في قلب المدينة انحدار وانحدار ومزيد من الانحدار» أثناء ما كنا نرتشف الكابتشينو في مقى عصري في الزمالك، الحي الجزيرة غالي الأسواق في

قلب القاهرة والذي كان ذات مرة مركز مال القاهرة القديمة وطبقتها العليا الأوروبية لكنه الآن مسكون إلى مدىً بعيد بأشقياء «القطط السمان» الجدد بسياراتهم الفارهة وأذواقهم المتغربنة ظاهرياً وإنجليزيتهم الفظيعة. إنهم يسكنون في المباني الشققية الضعيفة حيث كانت مبنية ذات مرة فللا جميلة.

وأخبرني رأفت بأن المشاكل الرئيسة لما بعد الانقلاب أتت بسبب خليط من التشريع الحكومي والتغيرات الاجتماعية، خاصة في أوائل ستينيات القرن العشرين عندما طُبق قانون ضبط الإيجار الاشتراكي المعروف بالأفضل. وشرح قائلاً: «على افتراض أن نصيب كل شخص سيتحسن وحينها سيوجد إسكان للجميع، لكن نصيب قلة من الناس تحسن ولا يزال لا يوجد إسكان للجميع. والنتيجة الوحيدة الواضحة هي التدهور المطلق والكلي لمشهدنا العمراني: من المعالم والطريقة التي يعيش بها الناس إلى الصيانة والتقدير. فهل كنت ستنفق نقوداً على صيانة مبنىً إذا كنت تملك فيلا سوق غالية تدر عليك أقل من مائة دولار شهرياً كإيجار – السقف المقرر في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر ولا يزال مفروضاً إلى اليوم؟ خذ مبنى صدقي هنا في الزمالك، الذي فيه نحو أربعين شقة، إنه بسبب ضوابط الإيجار يدر أقل من ٢٠٠ دولار شهرياً. فهل تتوقع جدياً أن يتخذ المالكون عناية مناسبة به؟»

وشرح بأن مباني حقبة ما قبل الثورة بُنيت في جو صحي من التنافسية الاجتماعية إذ رغب كل مالك في امتلاك موقع ممتاز وواجهة مميزة يمكنها العمل على جذب نوعية الناس الذين بإمكانهم الدفع للعيش هناك ولديهم نوعية الذوق الذي قصد بأنهم سيكونون فخورين بالمحيط بهم الجديد. «لكن في الحقبة الاشتراكية، رُمي الفخر من النافذة وكل ما أرادوا عمله إسكان الناس مثل الفئران، فأي شيء سينفع. لقد انتقلنا بين عشية وضحاها تقريباً من فترة هندسة معمارية بليغة ودقيقة إلى فترة من الهندسة المعمارية غير الشخصية. ولديك هجرة العقول أيضاً التي تُفاقم الوضع، فاشتملت هذه الهجرة على المهندسين المعماريين والموسيقيين والملحنين والكتاب... ومعظم مثل هؤلاء الناس المقموعين عن التعبير بانطباق على الجميع. فلو كنتُ مهندساً وأجد فجأة أن القطاع العام هو صاحب العمل الوحيد الأكبر، الذي يدفع بالتدريج، كنت سأبحث عن مكان آخر.

إن أفضل مهندسينا ببساطة ارتحلوا إلى الخليج أو بلدان أخرى مثل ليبيا.»

استناداً إلى رأفت، فإن كل هذا تزامن بشكل هام مع ما كان الفيضان الأخير للنيل، الذي إيقاعات غريبة كانت تُنظم حياة المصريين منذ أيام لا تُذكر وترويضه كان له أثر دراماتيكي على العقل المصري.

قال: «لقد كان كما فكرنا فيما يخص ما قبل الفيضان وما بعد الفيضان، فهو نظم سلوك كل شخص، ثم بنى ناصر السد العالي وحجزنا النيل ليتوقف عند أسوان ومن هناك فصاعداً أصبح قناة. وفي نفس الوقت، صار لنا قوانين تنظيمية راحت تحكم حياتنا اليومية، فما يُفترض أنه تعليم مجاني إبان ذلك أدى إلى عدم وجود أي تعليم فعلياً والرعاية الصحية المجانية والأمن الاجتماعي أديا إلى عدم وجود أي رعاية صحية ولا أي أمن اجتماعي. وفي وسط كل هذا، أصبح الإبداع شيئاً من الماضي. إن هناك انحدارًا في كل جانب في كل الأشياء التي كان من الممكن أن تؤدي إلى تحسن وصيانة مدينة مثل القاهرة. ما الذي تُركنا معه الآن؟ حسناً، ما الذي يطفو إلى السطح في النهاية؟ إنه بذاءة».

إن المثقفين أمثال رأفت حاولوا علانية، حديثاً جداً فقط، التأقلم مع الانهيار يساعدهم جزئياً الحنين المتنامي لفترة ما قبل الثورة.

لقد قال: «لم يعد هناك خوف بعد من الحديث عن الملكية وعن كيف عمل الخديوي إسماعيل الكثير لمصر، لكن هذه المواضيع كانت لمدة طويلة من المحرمات، ولمدة طويلة بدأ التاريخ وانتهى بعام ١٩٥٢، والآن يمكننا معالجة التاريخ بموضوعية أكثر وهناك الكثير من التنقيحية مستمرة. إن المؤرخين الآن أكثر مهنية بكثير مما كانوا يستطيعون حتى أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، فقبل ذلك كنا نكتب للحكام وليس لأي شخص آخر. لسوء الحظ أصبح الآن الوقت متأخراً لإصلاح الوضع، فالضرر حصل وكل ما نستطيع فعله هو محاولة إنقاذ القليل جداً المتبقي».

كان والد رأفت، الدكتور وحيد رأفت، محاميًا دستوريًا ذا تعليم فرنسي وعضوًا رائدًا في حزب الوفد الوطني الذي حكم مصر لمدة قصيرة في عشرينيات القرن التاسع عشر الذي سيُمنع مع كل الأحزاب الأخرى من قبل الضباط الأحرار بعد قبضهم على السلطة. لقد تم اعتقال الدكتور وحيد بعد طرق على الباب في منتصف الليل وسُجن

بواسطة مجلس قيادة الثورة بتهم الخيانة العظمى لمجرد كتابته سلسلة من المقالات منتقداً سياسة ناصر الخارجية، ولاحقاً وضع الدكتور تحت الإقامة الجبرية لسنوات. وفيما بعد، عندما أتيحت وظيفة في محكمة العدل الدولية، كانت مصر هي الدولة العربية الوحيدة المعارضة لما كان ترشيحاً جماعياً له، وبذا معطلة فرصه. وإذا كان والد رأفت لهذا السبب رواية أساساً، فإنها مع ذلك جديرة بحق للاستماع لها من أجل رؤية من أعلى كانت تملكها عائلته. ومع ذلك، سألت الابن بأنه مثلما بسطت ماهية الثورة وماذا أنجزت، أليس هناك خطرًا الآن في تمجيد حقبة ما قبل الثورة؟ ألم يكن زمناً امتلكت فيه نسبة ضئيلة من السكان تقريباً كل الثروة، بينما ترك نظامًا شبيهًا بالإقطاع ترك غالبية المصريين في فقر مدقع؟

فرد: «يتوقف الأمر على كيفية بحثك له.»

بالطبع، في حقبة فاروق كان هناك فساد كبير، ومحاباة الأقارب متفشية، لكن كانت مصر تتحرك من كونها بلد مستعمر أولاً من جانب العثمانيين وبعد ذلك البريطانيين، نحو الاستقلال. كان هناك حركة وطنية محلية عظيمة وكان هناك عملية تطور جارية. لو تُركت وحيدة، لجلب الوطنيون نتائج أفضل كثيراً كثيراً من الثورة – أو ما يُسمى ثورة – التي أعاقت عملية التطور. ورغم مشاركة نظام فاروق في الفساد، كان هناك بالتوازي إحساس وشعور بأن الأشياء كانت تتطور. فالاقتصاد كان يتحسن ومؤسسات المجتمع المدني كانت تعمل. وبالحديث عن قوانين العرض والطلب، كان الوطنيون سيصلحون الوضع – مهما كانت عملية الإصلاح بطيئة، لكن تلك العملية قُطعت فجأة، وبدلاً من ذلك لديك هجرة العقول. ما هي البلاد وشعبها بدون نخبتها الثقافية، بدون المؤسسات المنتجة لمثل هذه النخبة؟ لقد كان لدينا فجأة نخبة جديدة مشكلة من الضباط الذين لا يملكون شيئاً ليقدموه سوى رؤية دوجمائية ومحدودة، لا تستطيع تماماً رؤية الصورة كلها. لقد اعتقدوا بإمكانيتهم إصلاح الوضع عبر استخدام أساليب جذرية. لكن ليس هناك الآن بالمطلق أي محاسبة وحتى بسبب ذلك هناك فساد أكثر. ولأن رئيس بلديتك معين والمجلس البلدي معين ورئيس قريتك معين، فإنك لا تستطيع الاتصال بهم بعد أربع سنوات وتقول: انظروا، إنكم محاسبون أمامي وسوف لن أنتخبكم لتعودوا للوظيفة مرة

أخرى. نحن ليس لنا كلمة، الرجل البسيط ليس له كلمة.

إن نظام التعليم المتهاوي، بالنسبة لرأفت، هو الآن أساس كل المشاكل. فقد افتخر ناصر بشكل عظيم على توسيعه، متباهياً أن مدرسة جديدة كانت تُفتتح في مصر كل أسبوع تقريباً، وذلك كان صحيحاً. لكن ما فائدة ملايين المدارس إن كان هناك ستون طالبًا أو أكثر في كل صف يضربهم المعلم إن سألوا سؤالاً معارضاً حتى عن أبسط المواضيع مثيرة الجدل، بينما يتلقى المعلمون أنفسهم أجراً أقل من نادل في مقهىً محلي، وكل ما يفعلونه في الصف على أية حال إشغال واجباتهم بتعليم ببغاوي والترويج لرؤىً حكومية رسمية للتاريخ والدين والسياسة؟ إن كان كل ذلك يبدو شاذاً، تأمل هذا الحدث: لقد تدخل مبارك شخصياً في ٢٠٠٦ في قضية طالبة مصرية رسبت في امتحانات مدرستها الثانوية بعد انتقادها في مقالة للولايات المتحدة وحكومتها هي، آمراً بإعادة تصحيح أوراقها كي تحصل الطالبة على النجاح. ونُقلت قصة الطالبة الشابة بشكل واسع في وسائل الإعلام وحتى جرى جدل بشأنها في البرلمان المصري. لقد تم استدعاؤها واستجوبتها السلطات، كما قيل، بشأن فيما إذا كانت عضواً في منظمة سرية بعد اتضاح أنها في مقالتها اتهمت الولايات المتحدة بدعم الديكتاتوريين الفاسدين على حساب حاجات شعوبهم. إن الديكتاتوريين، بالطبع، مغرمون بالسياسة التلميحية، وفعْل مبارك السريع بعد تسرب أخبار مأزق الفتاة إلى وسائل الإعلام كان له التأثير في إبعاده عن فضيحة محلية محرجة. لكن لا يمكن لكمية من الأوامر الرئاسية الاتفاقية أن تُخفي حقيقة أن كمية نظام التعليم المصري قد جاءت بوضوح على حساب النوعية وأن العواقب بالنسبة للجمهورية أكبر بكثير من الإذلال الفج لطالبة بائسة. فكما أخبرني رأفت،

إن نقص التعليم يؤدي إلى فقدان الشخص كلياً للاتجاه وللإحساس بمن أين جاءوا وأي تراث ثقافي يملكون، وتتوقف عن التماهي مع ذاك التراث لأنك لا تملك القدرات العقلية لفهمه وتقديره. إن نقص التعليم يعني أن تاريخك أصبح غريباً عنك، والنتيجة النهائية هي مدينة القاهرة التي تراها اليوم. هناك دعوات من وقت لآخر في وسائل الإعلام المحلية لصون ما نزال نملكه من تراث، مهما كان قليلاً جداً قبل فوات الأوان. الحقيقة هي أننا في وقت ضائع. إننا نحتاج إلى معجزة وعلى أية حال فالمصري العادي

مهتم جداً بقوته من يوم ليوم الذي أصبح أي شيء آخر – تراثه وبابه الجميل ونظافته ودوره في المجتمع – ثانوياً بالنسبة له.

لدى شعوري بالاكتئاب نوعاً ما بعد الاستماع للقتامة المسيطرة على مصر، بدا لي أنه من المستحسن أن انتهز عرضاً لزيارة أحمد عكاشة – رئيس جمعية الأطباء النفسيين المصريين ورئيس سابق لمنظمة الأطباء النفسيين العالمية ومدير مركز منظمة الصحة العالمية للتدريب والبحث في الصحة النفسية. فبعد أيام قليلة خرجت بالسيارة لمقابلة هذا الطلائعي في الطب النفسي في الوطن العربي، الذي كان قد فتح حديثاً متجعاً للصحة العقلية على الطريق إلى السويس، الذي يبدو عن بعد مثل كثير من فنادق الخمسة نجوم التي انتصبت كالمشروم على الطريق الصحراوي، لكنه بداية إدخال لنوع جديد من سياسة الصحة النفسية الهادفة لإزالة وصمة العار الاجتماعية المحيطة بالمرض العقلي في مصر. ويملك المنتجع، الموضوع في حديقة مترامية الأطراف، جيمانيزيوم ومبنىً كبيرًا متعددًا الأغراض ومنطقة استقبال ذات نوافذ طويلة تفتح على حديقة تسمح بدخول الضوء بشكل كامل من كل الاتجاهات لرفع الروح المعنوية مباشرة لدى الوصول.

كان الرجل الذي استقبلني عنوان تام لأهداف المرفق. إنه شخصية ضارية للحمرة في ملابس رائعة، كانت تعلو وجهه العريض المشرق كتلة مصففة من الشعر الأشيب الرائع، لقد شع عكاشة بالسعادة من كل مسام قامته البدينة. وأثناء قيامنا بجولة في المرفق، مارين بتقطع عن واحد من شبيهات الدكتور العديدة من البرونز وموشلة بالحبر حول المستشفى، سألته فيما إذا كان بإمكانة إلقاء الضوء على الظرف العقلي أيضاً للمصرين الأقل حظاً بعد عقود خمسة من الديكتاتورية العسكرية الوحشية. ففوراً رغبته الشديدة للقيام بذلك أصبحت واضحةً وبدأ بإيضاح ما قال أنه تمييز حاسم بين الصحة العقلية وانعدام المرض العقلي.

لقد أوضح قائلاً: «الصحة كما عرَّفتها منظمة الصحة العالمية هي رفاه الفرد الجسدي والاجتماعي والنفسي – وليس مجرد انعدام المرض. وهناك أربعة متطلبات، لتكون صحيحاً عقلياً، عليك الوفاء بها: القدرة على التكيف مع ضغوطات الحياة وتوازن بين قدراتك وآمالك، والعطاء وليس الأخذ فقط، وتتمركز حول الآخرين، والقدرة على

عمل شيء من أجل أسرتك والمجتمع.» وقال بأنه كان هناك خلال السنوات الخمسين الماضية تغير دراماتيكي في العقل لما أشار إليه (بجاذبية إلى حدما) بشكل متكرر كـ«مصري» في سياق محادثتنا. إن «المصري تاريخياً معروف بامتلاكه حسّا من الفكاهة ساخر وتهكمي، فإن لم يستطع إيجاد شخص يجعل منه مسخرة، سيجعل من نفسه مسخرة. إنه معروف بامتلاكه درجة عالية من المرونة وذو توجه مناطقي وأسري كبير، لكنه ضد التطرفية والأصولية والعنف كثيراً جداً، ومرونته ممتازة. وفي ذات الوقت، كل دوافعه إيثارية – ذات توجه أُسري أو توجه مجتمعي أو توجه ديني.»

لكن عكاشة لم يعد يعتقد ذلك.

لا نرى كثيرًا من الابتسامات عندما نسير في الشوارع وهناك أسباب كثيرة بالنسبة لهذا. أولاً وقبل كل شيء، هناك الفقر إذ لا يزال أكثر من ٥٠٪ من المصريين فقراء – إنهم يعيشون على أقل من دولارين في اليوم. ثم هناك الازدحام ذو التأثيرات الهائلة على الشخصية والفرد، فالقاهرة أكثر مدينة ازدحاماً في العالم إذ يسكن اثنان وخمسون ألفًا في كل كيلومتر مربع، ومثل هذا لم يحدث في أي مكان آخر. ثم هناك البطالة المرتفعة وعدم قدرة الشباب على الانخراط في التعبير الحر إذ التعبير الحر يعطيك الصحة العقلية وكرامة الذات. إن الديمقراطية تقدم صحة نفسية أفضل، لكنها يجب أن تكون ديمقراطية حقيقية – التي تعني الشفافية والمحاسبة والقدرة على تغيير السلطات الحاكمة، والمصريون الآن لا يجدون شفافية في أي شيء من حيواتهم ولا يجدون أي محاسبة. لا أحد من اللصوص الوزراء أو السياسيين محاسب أمام الشعب الفقير، فنحن نملك نفس الشيء منذ ١٩٥٢: الجيش يحكم البلاد.

وقال إن مبارك مُحاصر في هذه البيئة العقلية. وقال باحتقار: «إنه موجود لمدة خمسة وعشرين عاماً والآن يقول، 'أنا سأبدأ تنفيذ الإصلاح!'» بالطبع مستحيل، لأن الإصلاح مخطط عقلي، وهو غير قادر على عمله، وبدلاً من ذلك، يحاول عمل بعض الأشياء المعينة فقط لخلق انطباع.» وأصر عكاشة بأن الأكثر خطراً اللامبالاة المخيمة الممسكة بتلابيب العقل المصري، «عندما تُعرِّض شعباً لكثير جداً من التعذيب العقلي ولكثير جداً من الضغوطات الحياتية، يبدؤون بالانسحاب إلى حالة من عدم الجدوى واليأس، وهذا

يجعلك لا مبالٍ: إنك لا تهتم بأي شيء. أنا أعيش في مصر لكن ليس لي علاقة معهم. دعني أعطك مثالاً، أولئك الذين صوتوا في انتخابات ٢٠٠٥ الرئاسية وصولوا إلى ٢٢٪ فقط من السكان. حتى الإقبال في موريتانيا وصل إلى ٧٢٪! ويوجد التزوير الانتخابي هنا: لقد وجدت محكمة الاستئناف العليا المصرية أن تسعين عضواً منتخبين للبرلمان في الانتخابات الأخيرة نجحوا بسبب التزوير. هذا يبين لماذا لا يهتمون بعد بمن يحكمهم.»

وخلص عكاشة إلى أن هذا الجو من الخداع سيطر على الدين أيضاً، إذ قال: «لقد قزَّم المصريون الدين إلى طقوس بما في ذلك تغطية الرأس والصلاة والحج... لكن الإيمان في الأعماق ليس قوياً، لأنهم يكذبون ويختلسون ويتصرفون بلا أخلاقية. ثم تعرض باختصار إلى مجموعة من الرسوم الكاريكاتورية أطَّرها بنفسه نُشرت في الصحافة المصرية على مدار العقود.

ومع ذلك فالإسلام دين سلام وغير عنيف ودين رحمة. إذن ما أساس هذا؟ منذ أزمان قديمة والمصري معروف كرجل لا يترك مكانه مطلقاً. شرفه في أرضه. لكن بعد ثورة ١٩٥٢ وبعد كل الأزمات الاقتصادية، أُجبر على المغادرة ليذهب إلى المملكة العربية السعودية والخليج بحثاً عن عمل. إنك عندما تتنازل عن قليل من شرفك، هذا يؤثر على أخلاقياتك. إن ناصر، قبل ١٩٦٧، كان قد أعطى الشعب المصري بعض الكبرياء، لكن ثم اتضح أن الحرب كانت فشلا تامًا، بغض النظر عما قالوا حينها، والشعب قرر: نحن ليس لدينا إيمان فيما يقوله هؤلاء الناس، ولذلك فسوف نعود إلى الله. سنفكر في الآخرة لأنه لا أمل هنا – رغم أن الإسلام يخبرك بأن عليك الاستمتاع بالحياة كأنك تعيش أبداً، وعليك التصرف كأنك تموت غدا.

لم يشارك عكاشة في الحنين المنتشر لأيام ما قبل الثورة، معتبرها وهمًا خطيرًا، فقد أوضح بأن «الناس الذين يلتفتون كبديلٍ إلى حقبة ماضية كفترة حكم الملك فاروق، لم يكونوا أحياء آنذاك. إنهم يعتقدون أنه كان هناك تعبير حر أكثر وديمقراطية أكثر، لكن دعنا لا ننسى أن نصفًا في المائة من كل شيء في مصر امتلكته طبقة معينة من الشعب. لقد كان هناك تعبير حر وبالتأكيد لم يكن لدينا قانون طوارئ. ومن الحقيقي أن تقدير المصريين الجمالي قد تدهور بشكل هائل منذ الثورة، لكنني كثيراً جداً ضد أولئك الذي يعزفون على

رِبابة الماضي وأعتقد أنه من الخطأ التام مقارنة الحاضر بماضٍ بعيد.»

إذن ماذا عن المستقبل؟ ما هي فرص تحول الفوضى واليأس الحاليين إلى أن يكونا خلاقين؟ أم سنتخلى عن كل الآمال في التقدم؟

إنني أفضل الاعتقاد بأنه سيكون هناك نوع ما من الفوضى الخلاقة. وطالما بقيت البنى المعرفية لصناع السياسة الحاليين كما هي الآن، لا أعتقد بأننا نستطيع تحقيق تقدم، وسيصبح الأمر فوضى شاملة. لكنني أستطيع الرؤية من وسائل الإعلام والصحف ومن المفكرين الجدد بأن هناك أملا ما بإجبارهم لصناع السياسة على التغير. إن إيماني الخاص أنه طالما يفتقد الزعماء السياسيون الشفافية والمحاسبة وتداول السلطة، سيكون هنا فوضى، إما سيكون هناك انقلاب أو تطرفية إسلامية. ثم إضافة، قد يكون هناك تغير سلمي تحدثه الأحزاب السياسية. علينا فهم أن الناس في الحزب الديمقراطي الوطني هم مصريون، وعندما تجلس معهم، يتحدثون كما نتحدث الآن لكنهم لا يستطيعون التصرف لأن القوات المسلحة هي من يحكم حقاً وإن تكلمت علانية ضدهم تُسجن. على أية حال، القيادة تعني اختيار الناس الملائمين لمساعدتك على أداء العمل بشكل سليم. لكن لسوء الحظ، هناك ثالوث من القوة والمال والسلطة، وإن امتلكت واحداً منها فإنك تملك الاثنين الآخرين – وحينها لن ترغب بالتنازل عن أي منها.

لقد بدا على صوته كما لو زحفت إليه نغمة حزينة.

مثل كثير من مبادرات النظام الأخرى، عادت حملة تنظيم الأسرة الموجودة منذ فترة طويلة، بنتائج مهلهلة – مثل المحاولات المستمرة للقضاء على العادة شبه الشاملة لختان الإناث استناداً إلى فتاوٍ تُعلن بأن هذه الممارسة غير إسلامية، والقضاء على الأمية الشاملة من خلال برنامج قراءة الكتب الوطني مادحًا ذاته تقوده سوزان زوجة الرئيس محبة وسائل الإعلام. لقد كشف إحصاء السكان الوطني للعام ٢٠٠٦ أن مصرياً يُولد كل ثلاث وعشرين ثانية رافعاً عدد السكان الإجمالي بمن فيهم القاطنون في الخارج إلى ستة وسبعين مليون نسمة بزيادة ٣٧٪ عن رقم إحصاء ١٩٩٦، وذلك يعني أن واحداً من كل أربعة عرب هو مصري. إن عدد سكان القاهرة الحالي وحدها يُقدر بما يقارب العشرين

ملايين نسمة مقارنة بنصف مليون فقط من السكان عند حلول القرن العشرين؛ وأظهر إحصاء السكان الأخير أن العاصمة تملك النمو السكاني الأحدث الأكبر (تقريباً ١١٪) في كل محافظات البلاد. ويتنبأ النظام الآن بأنه بحلول عام ٢٠٢٢ سيعيش في العاصمة نحو ٢٨ مليون من الناس. إنها حالياً موطن لـ ٤٣٪ من سكان البلاد القاطنين الأماكن الحضرية و٥٥٪ من كل الجامعات و٤٦٪ من كل أسرة المستشفيات و٤٣٪ من كل الأعمال – بدون ذكر جيش البطالة ومليون ونصف سوداني ولاجئ عراقي ومليون مصري يجب أن يسافروا يومياً إلى العاصمة من المناطق الريفية لحل موضوع شخصي لدى بيروقراطية حكومة كافكية (نسبة إلى الكاتب المسرحي كافكا – المترجم). من الواضح أن القاهرة ستستمر في التطور بسرعة فائقة – وعلى غرار أسوأ كابوس لكل مصمم معماري.

يمكن إرجاع هذه المركزية المزمنة مباشرة إلى سلطوية ناصر المذعورة. فعملاً بفلسفة من يسيطر على العقل يسيطر على باقي الجسد، جعل القاهرة مركز السلطة المطلق، مسببةً ضرراً شديداً لمدن أصغر ولدلتا النيل والصعيد (إلى الشمال والجنوب من القاهرة على التوالي). فمثلاً، مدينة الإسكندرية الساحلية على المتوسط، المدينة الأكبر الثانية في البلاد والمنافسة الوحيدة التاريخية للقاهرة على الشهرة، هذه الأيام هي مجرد ظل لمدينة صُورت في عشرات الأفلام المصرية الشهيرة التي يعود تاريخها إلى أربعينيات القرن العشرين، حيث الشباب والنساء وجدوا الحب أثناء الإجازة. ومدحت الأغاني الشعبية من تلك الحقبة نسيم بحر المدينة العليل وجمال نسائها وكيف يزدهر الحب بسهولة، بينما رباعية الإسكندرية للورنس داريل قدمت إجلالاً حنينياً لكزموبوليتانية المدينة الاستثنائية وكذلك أيضاً لفترتها البائسة والمهلهلة والمكان المغري بلا نهاية الذي كانته حينها بالنسبة لمكائد القوى العظمى وغير العظمى. ولم تعد معظم مطاعم المدينة ونواديها الليلية الشهيرة التي أدارتها العمالة الوافدة تعمل، فمالكوها من وقت طويل مضى عادوا إلى أوروبا إلى الأبد. فقط تبقى أناس عجزة ذابلون قلة مما كان ذات مرة مجتمع متغربن مزدهر من اليونانيين والقبارصة والإيطاليين والفرنسيين والأرمن.

بديلاً عن ذلك، يمتلك الإخوان المسلمون الأصوليون مشرعين منتخبين من الإسكندرية أكثر من أي مدينة أخرى. وبينما أبطال داريل المولودين بروتستانت

وأرثوذكس تناقشوا ذات مرة مطولاً (على نحو مطول مل لا يمكن إنكاره) عن غوامض الكابالا ومجَّدوا جمال سيداتها المتنوعات، الآن يقنع أغلب الملايين الخمسة سكان المدينة بحفظ القرآن. ويطبق بانتقام العائدون من الخليج عقيدتهم الوهابية التي تعلموها مصرين على نساء عائلاتهم الاستحمام في البحر بعباءة كاملة وألا يتحدثوا مع المصريين المسيحيين لأنه، مذ أن هؤلاء الآخرين كفار، ممنوع عليهم دينياً فعل ذلك. وبأخذ هذا الجو الاجتماعي المرعب في الاعتبار، فإن مكتبة الإسكندرية الجديدة المبنية بتكلفة ٢٣٠ مليون دولار في محاولة لإحياء سابقتها القديمة الساحرة (ولا تمثل أي شيء بقدر صحن تلفزيون فضائي عملاق)، أخفقت بما لا يثير الدهشة في إثارة نهضة من العلماء الفطنين.

إنني غالباً ما ذُكِّرت بوصف رأفت للقاهريين «بإسكانهم كالفئران»، وبتتبع عكاشة لتدهور الصحة العقلية للجماهير المصرية الفقيرة، عندما زرت عائلة إيهاب ابن العشرين عاماً الذي تصاحبت معه في قطار إلى القاهرة من الصعيد خلال أحد رحلاتي المتكررة طلوعاً ونزولاً في البلاد. لقد كان إيهاب الشاب الطويل والنحيل وذو المظهر الضعيف يقرأ جريدة في عربة القطار التي كنت أسافر فيها. إن قراءة شاب مصري لأي شيء أمر مثير للغرابة بشكل كاف ليجذب الاهتمام سريعاً وأصبحت أكثر فضولاً ثانية عندما لاحظته يقرأ الصفحة الافتتاحية (بدلاً من صفحة الرياضة أو الجرائم). وفيما بعد صرنا نتحدث ونحن ندخن سيجارة تحت إشارة ممنوع التدخين ضخمة في منطقة حقائب السفر بين العربات، ويدخن أيضاً تحتها حارس من المفترض من واجبه تطبيقها. إن التجاهل الروتيني لجميع مثل تلك الأنظمة الداخلية – من رمي الفضلات إلى رفض استخدام عداد التاكسي أو احترام أنظمة المرور الأساسية – بالطبع عَرَض لكلٍ من نظام فاشل واحتقار المصريين الشامل للسلطة، سواء على المستوى المحلي أو الوطني.

لقد اتضح أن إيهاب طالب في كلية في جنوب مدينة قنا الواقعة على مبعدة ساعة من منتجع الأقصر السياحي. وكان في طريقه إلى البيت لإجازة قصيرة، ودعاني لأقوم بزيارة لعائلته في القاهرة في أي وقت أجد نفسي فيه خالياً. وبالعودة إلى تسعينيات القرن العشرين، فإن مثل هذه الدعوات المقصودة الصادقة للغداء، حتى من قبل المصريين العاديين غير العاملين في صناعة السياحة الواسعة، كانت تحدث على مدار الساعة تقريباً،

لكن منذ ذاك الحين أصبحت نادرة. لقد كتبت هذا أساساً بسبب حقيقة أنني خلال معيشة [illegible] الأحداث كنت قد أصبحت أكثر انفعالاً وتحدثت المصرية الشعبية بطلاقة وبدوت أكبر وأكثر خبرة بالناس وهكذا على الإجمال كنت أقل ودية. ومع ذلك، في رحلة أخرى بالقطار كان قد أخبرني بأدب أستاذ جامعي، بعد سماعه رثائي لصاحب سفري عدد الدعوات المتناقص، بأنه إذا «دعاك أناس سيكون الأمر مكلفاً لهم إذ سيكون مخجلاً عدم تقديم أفضل الطعام لك وليس أي شيء، ومشكلة هذه الأيام عدم مقدرتهم حتى على إحضار طعام كاف لمائدة أطعامهم.» في ذلك الوقت، منتصف ٢٠٠٧ م، ارتفعت أسعار الطعام إلى ٢٥٪ عما كانت عليه قبل سنة فقط، بينما بقيت الأجور بدرجة كبيرة كما كانت عليه من عقد من الزمن، وهذا جزء من نمط تاريخي. فبينما تقدر زيادة الأجر المتوسط بـ ٦٠٪ ما بين عامي ١٩٧٨ ١٩٨٨، مثلاً، زادت الأسعار خلال ذلك العقد بـ ٣٠٠٪ بنتائج مدمرة خاصة لمجمل السكان الذين أجورهم (على عكس أجور أولئك الأثرياء) كانت في أفضل الأحوال قد واكبت المعدل الرسمي للتضخم، هذا المعدل المتنازع بشأنه على نطاق واسع.

عاشت عائلة إيهاب في مدينة تابعة في ضواحي القاهرة تُدعى مدينة السلام. وكان طابقهم الأرضي، الشقة بثلاث غرف في مجمعٍ خرسانيٍ منبي لهذا الغرض رمادي مطابق لكل ما يحيط به. لقد بنيت المدينة التابعة في أواخر سبعينيات القرن العشرين كجزء من «سياسة الانفتاح الساداتية»، عندما أعلن النظام خططاً لبناء أربع عشرة مدينة بهدف إعادة توجيه النمو العمراني نحو الصحراء. وقد دُشنت مدينة السلام بصخب عظيم، مصحوب بمشاعر نبيلة تمجد فضائل مسكن إنساني جليل وتحسن عام في نوعية الحياة. ومع ذلك، على الفور حدث واقع صعب إذ أهمل النظام كما هو متوقع واجباته التمويليه وبدلاً من ذلك وقعت مسؤولية التطوير على أكتاف المستثمرين الخاصين، فكانت النتيجة عشوائية. عدد من المدن – يضمنها مدينة نصر و ستة أكتوبر – ازدهرتا فعلياً، كلاهما كمراكز سكنية وصناعية، مع أن أي غابة خرسانية منهما لا تملك أي ميزات معمارية تعويضية. كان النجاح في حالة مدينة نصر يعود بدرجة كبيرة إلى حقيقة أنها أصبحت مكاناً يختاره موظفو الحكومة من الطبقة الراقية لإنشاء بيوتهم: إذ النظام المصري، مثل كل

obeikandi.com

الديكتاتوريات، يعطى أولوية العناية لموظفيه. فلهذا اليوم عبد المصريين المصوتون في الانتخابات لصالح الحزب الديمقراطي الوطني الحاكم (تقريباً سبعة ملايين بحسب الأرقام الرسمية غير الموثوقة أبداً) يساوي عدد موظفي الحكومة، الذين يندفعون غالباً إلى مراكز التصويت بينما يُغطي البوليس الشوارع المحيطة ليبعد مؤيدي مجموعات المعارضة الراغبين بالتصويت. وأثناء ذلك أصبحت مدينة ستة أكتوبر قاعدة لنصف مليون أو نحو ذلك من اللاجئين العراقيين الذين هربوا إلى مصر عشية الاحتلال المقاد أمريكياً لبلادهم في ٢٠٠٣ م والحرب الأهلية التالية له.

وتبقى المدن التابعة الأخرى مدن أشباح فعلياً – وصف ملائم لمدينة السلام، التي أغرت الحكومة أساساً سكانها من أسطح منازل قلب مجمعات القاهرة الشقيقة التي كانت ذات مرة فخمة، حيث كانوا يجثمون لعقود. لم تكن مدينة السلام، في الربع الأخير من القرن، تملك فعلياً أي استثمارات كبرى، خاصة أو غيره، ولا زالت تملك جو معسكر لاجئين راقٍ، يتوق سكنها أبداً للانتقال إلى مكان آخر. إن بُعدَها يُضاف إلى إحساس الكآبة الكاسح: إنني سأزور عائلة إيهاب يوم الجمعة صباحاً، عطلة نهاية الأسبوع عند المسلمين، عندما تكون شوارع القاهرة المكتظة بشكل سيئ السمعة خالية لمدة قصيرة من المرور؛ لكن حتى حينها ستستغرق الرحلة تقريباً ساعة بالتاكسي وتكلف ستة دولارات – ما يعادل أجرة ثلاثة أيام بالنسبة لموظف حكومي متوسط المستوى.

تلك كانت وظيفة والد إيهاب المتقاعد الآن، أب فخور جالس يدخن بهدوء أثناء مشاهدته لأطفاله التسعة – خمسة أولاد وأربع بنات بين الرابعة من العمر والثلاثين – يتدافعون من أجل مكان في الغرفة الأمامية، حيث كان التلفزيون يزمجر بفيلم مصري قديم حاولت من فوق ضجته جدة إيهاب إخباري بحاجتها إلى طقم أسنان جديد. لقد استُبدلَت الأرائك بثلاثة أسرة كي يمكن تحويل غرفة المعيشة إلى غرفة نوم في الليل. «هل أوقفت الخلفة الآن أم تحاول إنشاء جيش؟» سألت الأب بينما الباب الأمامي، المفتوح مباشرة على بئر السلم الجماعي المتسخ، تأرجح منفتحاً مرة أخرى بفرقعة وأيضاً مر من أمامي أطفال صغار أكثر – أبناء عم؟ أبناء الإخوة؟ – ليطلبوا من جدتهم سنتات قليلة لشراء بعض الحلوى. ومزح أشرف، الأخ الأكبر، بأنه نفسه لديه حالياً ثلاثة أولاد، وكان

في مهمة تعزيز صفوف العائلة الناضبة. أو ربما كان جاداً. على أية حال، موضوع الزواج وامتلاك أطفال، ومن ثم محاولة كسب نقود كافية لإطعامهم وكسوتهم وتعليمهم صار مهيمناً على حديثنا خلال زياراتي من حين لآخر، التي استمرت سواء كان إيهاب في الكلية أو البيت. لا يبدو أن أحداً لديه الوقت ليفكر في أي شيء آخر، دع عنك الرغبة في مناقشته، فيما عدا الكلام الجانبي المرير من حين لآخر بأن الرئيس «ابن ستين كلبة.»

إن سبب هذا الواقع المتجهم، الذي وصفه الدكتور عكاشة لي بإيجاز، كان مسألة حسابية بسيطة. فوالد إيهاب تقاضى معاشًا تقاعديًا حكوميًا شهرياً بمقدار ٧٥ دولارًا. وكان أكل العائلة الممتدة للحم سوية كل جمعة قاعدة منزلية ذهبية، وليكلوين من اللحم يكلفان ١٥ دولارًا وهذا يُبقي ١٥ دولارًا من دخل العائلة الرئيسي، الأدنى بقليل من الإيجار الشهري. وكان أشرف، كي يتزوج، قد ملأ الشقة المستأجرة بالأثاث المُشترى بالتقسيط (التقليد المصري أن العريس يوفر الشقة والأثاث والعروس الأدوات الكهربائية)، وتحمل والده ليس فقط عناء دفع عربون الشقة بل دفعات أقساط الدولارات الأربعين الشهرية. إن أشرف يعمل في صناعة السياحة بأجر ٤٠ دولارًا شهرياً، بالكاد تكفي لدفع إيجاره هو والسفر إلى ومن العمل كل يوم في وسائل النقل العام. وأخ إيهاب التالي كبراً في السن، بسام، رغم تعلمه كمحامٍ، إلا أنه يعمل في مقهى محلي لأنه لم يستطع دفع رشوة ضرورية للحصول على وظيفة في مؤسسة محامين محلية. على أية حال، تقاضى بسام نفس أجر محام منخفض المستوى (دولارين) لاثني عشرة ساعة عمل يومياً بالإضافة لدولار أو نحو ذلك بقشيش لو كان محظوظاً. لكنه كان يتقاضى راتبه بشكل متقطع من قبل مالك المقهى، الذي ادعى أن المقهى لا يدر نقوداً كفاية ليدفع لموظفيه بشكل منتظم. وإن لم يكن ذلك سيئًا كفاية، فإن بسام كان مسؤولاً عن الدفع عن طلب أي زبون غادر المقهى بدون الدفع. أبلغني، الرجل الورع باعتدال المؤدي للصلوات الخمس يومياً، والذي هو في حالة دائمة من القلق لأن المرأة التي أراد الزواج منها إلا أنه لا يملك المال ليتزوجها كان يطاردها منافس أغنى منه، بأنه كان يواجه ورطة أكثر إلحاحاً فيما إذا كان سيتسمر في الصلاة في المسجد المحلي أم لا، لأن كثيرًا من الزبائن ينتظرون حتى الآذان للصلاة، ومن ثم ينسلون أثناء قيامه بوضوئه. كان عليه في بعض

الأيام أن يدفع دولارًا عجز تقريباً في درج النقود (يُباع كوب الشاي أو الأرجيلة بنحو عشرين سنتاً)؛ وبعد شراء ساندويتش للغداء والدفع لوسيلة النقل العام إلى ومن العمل، فإنه سيجد نفسه لهذا غالباً قد أنفق أكثر مما كسب. أما إيهاب نفسه فلم يكن عليه الدفع للجامعة لأنه تخرج بدرجات ممتازة من مدرسته الثانوية؛ لكن لا زال عليه إيجاد ٧٠ دولارًا سنوياً للكتب و١٢ دولارًا إيجارًا شهريًا والسفر بين الحين والآخر بالقطار إلى ومن الجامعة والطعام وفواتير المرافق العامة (كانت ملابسه مما تركه إخوته الأكبر). وقال بأن هذه النقود يدفعها والده.

كل ذلك استدعى سؤالاً: كيف بحق السماء استطاع الوالد إنفاق مقدار المعاش خمس مرات على أطفاله؟ لقد اتضح أن هناك سبيلين للحفاظ على العائلة حية. كان الأول نظام تآزر شائع بين الجيران، خاصة الزوجات ذوات الأطفال الصغار، حيث تدفع كل واحدة مقدار معيناً كل شهر في حصالة وواحدة تأخذ كل المقدار كل شهر على أساس دوري. وكان السبيل الثاني جولة دائمة من التسول من الأصدقاء والعائلة الممتدة، خاصة إذا كان أحدهم قد نجح في تأمين عمل في الخليج (حيث حتى العمال غير المهرة يمكنهم كسب ما يقدر بألف دولار شهرياً). لقد كان إيهاب محظوظاً لتقدير عائلته الممتدة العالي للتعليم، ولدى ملاحظتهم لذكائه مبكراً، كانوا قد أنفقوا عليه ليتلقى دروساً خصوصية بعد المدرسة. إن إرسال الأطفال إلى المدرسة بدون الاتفاق مع مدرس خاص، يُقال غالباً، مثل عدم إحضار الدفاتر أو الأحذية لهم. فالمصريون الآن ينفقون كما يُقال نحو ٢,٤ بليون دولار سنوياً على الدروس الخاصة مساعدين بذلك على الإبقاء على دائرة مفرغة يكون المعلمون أنفسهم غالباً فيها مرهقين جداً ليعلموا بفاعلية في الصف لأنهم يعملون كمعلمين خاصين حتى الساعات المبكرة من الصباح كي يُضيفوا إلى دولاراتهم الاثنين، دخلهم اليومي التافه.

إن نصف العائلات المصرية على الأقل هي في نفس حال عائلة إيهاب. وكانت طبقة ناصر الفاسدة في موقع رئيسي لاستغلال انفتاح السادات الاقتصادي الجديد في سبعينيات القرن العشرين. وكما يقول جيمس جانكويسكي في كتابه مصر: تاريخ مختصر (٢٠٠٠) أن «طبقات جديدة من الشعب نشأت بجانب، أو من خارج، برجوازية الدولة

الصاعدة سابقاً «الانفتاحيون»، انهمكوا في تجارة الاستيراد أو المضاربات المالية أو عاملين كوسطاء للاستثمارات الأجنبية؛ أو «تجار شنطة» يبيعون أزياء المصممين أو الموضات الإليكترونية؛ طبقة جديدة من المليونيرات المحليين يقودون سيارات المرسيدس ويسكنون الفلل الثرية قرب الأهرامات.» لكن بالنسبة لمجمل المصريين، مثل عائلة إيهاب، أصبحت الأمور أكثر سوءاً، تُعمق إحباطهم المعرفة بأن أولئك الذين يتمتعون بالثراء المكتشف حديثاً في سبعينيات القرن العشرين نادراً ما حصلوا عليه بطرق شريفة. فالسمسرات والعمولات أصبحت جزءًا طبيعيًا من إنجاز الأشغال بانطباق على الجميع. فأخذ أعلى الرسميين رشًا عندما لم يكونوا مشغولين باختلاس خزائن الدولة، واقتطع مطورو العقارات كل زاوية استطاعوا إليها سبيلا، وجمع البيروقراطيون البغشيش فقط لأداء واجباتهم الإدارية. إنه لم الصعب تقليل التأثير على الوضع الاجتماعي، بالإضافة إلى الطبقي، لكل هذا «المال القذر» مستبدلاً «المال الحلال.» فتماماً كما كانت قد استُبدلت الارستقراطية الراقية القديمة والنخبة المثقفة بعصبة ناصر من الرعاع والجهلة، الآن كانت صفوفهم هم تتضخم بأولئك الأعضاء الأغنياء الجدد الذين حصلوا على ثرواتهم فجأة فقط بأخذ تلك العمولات أو السفر إلى الخليج للعمل عشية ازدهار النفط في سبعينيات القرن الماضي، أو بيع أرض كانت لعائلاتهم الفقيرة لأجيال، لكنها أصبحت بين عشية وضحاها تساوي ثروة صغيرة إذ ترعى سوق العقارات ازدهار النخبة الجديدة. وهنا يخطر على البال اختصار رأفت الموجز «غائط يصعد إلى القمة.»

عندما جاء تحرير الاقتصاد على هيئة الخصخصة، أثقل كواهل أولئك الذين قد تُركوا في الخلف بثمن اجتماعي كبير. فتم وقف دعم الدولة المباشر للسلع الأساسية تحت إصرار منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي، وتم خصخصة نحو أربعمائة شركة قطاع عام رئيسية مصرية منذ تسعينيات القرن العشرين. ويُتهم الموظفون الرسميون الأعلى بأخذ عمولات ضخمة على الصفقات، ولهذا بقيت الشركات الخاصة القائمة حديثاً إلى درجة كبيرة حرة من أنظمة حكومية جادة. وأحد الأمثلة لما يجري عندما تترافق حكومة فاسدة والاستثمار الخاص الوحشي هو ظاهرة أبراج الكهرباء والاتصالات في مصر التي تُبنى بجوار، أو أحياناً حتى على أسطح أو داخل، منازل الفقراء، الذين يخبرهم الموظفون

الرسميون عندما يشتكي الفقراء من ذلك بأنه لا توجد أية قوانين تمنع مثل هذه الممارسات وهكذا سيكون على أطفالهم، المعانين أصلاً من سوء التغذية ونقص الرعاية الصحية، أن يعيشوا تحت حقيقة الاحتمال بتعرضهم بشكل دائم لمستويات عالية من الإشعاع المسبب للسرطان. وجنباً إلى جنب مع هذه الأنانية والإهمال، يستمر النظام في زيادة الإنفاق دراماتيكياً على الجيش، بينما تقطع الإنفاق على الخدمات الاجتماعية مثل التعليم والرعاية الصحية. كل هذا بتوافق مع العقيدة العولمية الجديدة، حيث الثروة الناشئة عن السوق الحرة من المفترض أن تنضح وهكذا تفيد الجميع، بدون الحاجة لهذا السبب أن تضع مكانها آليات بديلة للدعم الاجتماعي.

سيكون سهلاً أن تجد عائلة مشابهة في عسر رهيب في أي من الأحياء شبه الفقيرة الكثيرة في لندن ونيويورك، بنفس الشكاوي بشأن السكن دون المستوى والرعاية الصحية والتعليم، دع عنك ذكر فساد ولا مبالاة الحكومة. وما يجعل بريطانيا والولايات المتحدة مختلفتين، مع ذلك، واقع التحركية الاجتماعية ومعه المعرفة الذاتية الهامة بأن تعليم جيد ورغبة في العمل الجاد، مهما كانت خلفية الشخص، قد يجدان أخيراً تقديراً وهكذا يدفعان المرء على الخروج من دائرة الفقر واليأس. باختصار، توجد هناك طبقة متوسطة. فبينما هو حقيقي أن الناس في المساكن الشعبية المهملة في بريطانيا والولايات المتحدة قد يبقون أيضاً عالقين كثيراً جداً في دائرة الفقر لبقية حياتهم، والفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون أيضاً تستمر في الاتساع في هذه البلدان المتقدمة، الطبقة الوسطى، على عكس مصر، هي فئة سكانية أكثر أهمية اقتصادياً لأنهم يتقاضون أكثر بالمقارنة. علاوة على ذلك، وبعكس مصر، هناك شكل ما من الحكم الديمقراطي، وهكذا يجب الاستماع على الأقل لاهتمامات الجماهير، إن لم يُعمل شيء بشأنها دائماً. أما في مصر، فالطبقة الوسطى اسمياً، التي كان على بسام أخ إيهاب كمحام متدرب الانتماء لها منذ فترة طويلة، كانت تشعر بالجزء المؤثر لمتوالية من الإصلاحات الاقتصادية تبناها النظام منذ موت ناصر عام ١٩٧٠، بينما الركود السياسي ساعد على تعزيز تلك الهوة وتهميش دور الطبقة الوسطى في المساعدة على تشكيل السياسة والمجتمع. إن النظام المصري يحب التباهي بأن الاقتصاد يتمتع بمعدلات نموه الأعلى منذ الثورة، لكن يدخل سبعمائة ألف مصري سوق العمل كل

عام، ولا يزال القطاع العام يوظف نحو سبعة ملايين مواطن الذين لا يمكن خصخصة أعمالهم، مع ذلك أثقلوا كاهل البيروقراطية الحكومية. إن هناك سؤالاً غالباً يُسأل: كم من السبعة والثمانين مليون مصري يستفيدون من بورصتي القاهرة والإسكندرية؟

إن الخلاصة العامة التي تستنتجها ربما هي الأكثر وضوحاً، بالتحديد، أن الإفقار بما يمزق الأحشاء، الطبقة الوسطى سيئة بالنسبة لاستقرار طويل الأمد لأي بلد. والحال هكذا مضاعف عندما تنفض الدولة الراعية يديها من كلا إدارة الاقتصاد والرفاه الاجتماعي، تاركة عشرات الملايين من الطبقة الدنيا كذلك طافية على غير هدى في التيارات المضطربة الناتجة. إن أحد المخاطر هو أن الفراغ سيوفر بيئة ملائمة تماماً لنمو منظمة مثل الإخوان المسلمين، التي تتشكل صفوفها وأعضاؤها المسجلون بشكل رئيسي ممن تُرك من الطبقة الوسطى المتعلمة: أطباء ومهندسين ومحامين وطلاب ومعلمين. لقد جعلت المنظمة الخيرية الشعبية والاهتمام الظاهري بمعاناة المسحوقين الشق المركزي في حملتها لتكسب الجماهير إلى الإسلام المتطرف.

إنْ بلغ الإخوان السلطة، فإن حكمهم لعقود من الآن قد يحفز في بعض المصريين حنيناً إلى الأيام الأخيرة من النظام العسكري الفاسد الحالي، ذاك الحنين الذي يشعر به المصريون الآن إلى الديمقراطية البرلمانية التي وُجدت قبل الانقلاب في ١٩٥٢.